الفصل السابع

السابقون – هولندا وإنجلترا

The Winners–Holland and England

هولندا

بدأ النمو المستدام للاقتصاد الهولندي في القرن السادس عشر. فقبل أكثر من قرنين من تطوير مالتوس لفخه السكاني المروع، كانت هولندا قد أفلتت منه بالفعل. ومع أن نمو هولندا كان أهدأ كثيراً من النمو الانفجاري الذي حدث في إنجلترا بعد ثلاثمائة سنة، فقد كان لدى آدم سميث، الأب المؤسس لعلم الاقتصاد، كشأن معظم الإنجليز في عصره، مبرراً وجيهاً لأن يحسد هولندا على ثروتها:

> إن مقاطعة هولندا ... نسبة إلى مساحة أرضها وعدد سكانها، بلد أغنى من إنجلترا. تقترض الحكومة هناك باثنين في المائة، والمواطنون ذوي الائتمان الجيد بثلاثة في المائة. ويقال إن أجور العمال أعلى في هولندا عن إنجلترا[1].

عند نهاية القرن السابع عشر كانت إنجلترا تتعافى لتوها من حرب أهلية وحشية وإعادة أسرة ستيوارت. بينما كانت هولندا تتمتع بأكثر من قرن من الحكم الجمهوري، وإن كان أوليغاركيًا[1]، وكان ناتجها المحلي الإجمالي لكل فرد يبلغ حوالي ضعف

(١) الأوليغاركية Oligarchy (حكم القلة) شكل لبنية السلطة في الدولة تتجمع فيه السلطة في أيدي عدد صغير من الناس، قد يكونوا أسرة مالكة أو روابط أسرية أو طبقة غنية أو طبقة الشركات ورجال الأعمال أو رجال الجيش، وغالباً ما تنتقل السلطة فيه بين أجيال أسر قليلة نافذة. تاريخياً كان هذا الشكل لبنية السلطة ينحو إلى الاستبداد وتحويل الشعب إلى عبيد، ومنه أيضا من كان حميداً فيحفظ للشعب الكثير من الحقوق، بينما يحتفظ لنفسه بالسلطة. ومن علماء السياسة، مثل روبرت ميشلز، من يرون أن=

جارتها الأكبر عبر بحر الشمال. ومع أن الهولنديين لم يستعيدوا أبداً الهيمنة العسكرية والاقتصادية التي تمتعوا بها في القرن السابع عشر، فقد ظلوا إلى يومنا هذا من أغنى شعوب العالم. كان الرخاء الهولندي عظيماً حتى إنه في عام ١٨١٥م، وبعد عقود من المقاطعة من جانب إنجلترا والغزو والاستغلال اللاحقين من جانب فرنسا، كان مستوى المعيشة بها لا يزال في مستوى نظيره في بريطانيا.

توجز الأرقام التي يوردها أنغس ماديسون، المبيّنة في الجدول التالي، الانتصار الاقتصادي الهولندي، وتقدم كذلك سردية نثرية.

نمو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في القرنين السادس عشر والسابع عشر[٢]

	١٥٠٠	١٧٠٠	معدل النمو ١٥٠٠- ١٧٠٠
هولندا	٧٥٤ دولار	٢,١١٠ دولار	٠,٥٢٪
إنجلترا	٧١٤ دولار	١,٢٥٠ دولار	٠,٢٨٪
فرنسا	٧٢٧ دولار	٩٨٦ دولار	٠,١٥٪
إيطاليا	١,١٠٠ دولار	١,١٠٠ دولار	٠,٠٠٪
الصين	٦٠٠ دولار	٦٠٠ دولار	٠,٠٠٪

إن متوسط معدل النمو ٠,٥٢٪ الذي حافظ عليه الهولنديون بين عامي ١٥٠٠م و١٧٠٠م، مع أنه هزيل بالمعايير اللاحقة، كان يشكل تحسناً مذهلاً على خلفية الركود الاقتصادي الذي خنق أوروبا لألف سنة بعد سقوط روما.

سيفزع كثيراً من الإنسانيين، بلا شك، ذلك الاعتراف الموجز الذي خُصِص لإيطاليا في هذه السردية. يتساءل هؤلاء: ألم تكن الدول-المدن الإيطالية الأكثر تقدماً

=الديمقراطيات الحديثة تطورت إلى أوليغاركيات بسبب ضيق النخبة التي يتم تداول السلطة في إطارها وبسبب وجود حزب واحد أو اثنين تنتقل السلطة بينهما. ومن علماء السياسة أيضاً من يعتبرون الديمقراطية الحديثة أوليغاركية لأصحاب الشركات، واشتقوا لها اسماً (corporatocacy حكم الشركات)، في مقابل حكم الأسر أو العسكر قديماً (المترجم).

في أوروبا في الإنجاز التجاري والفكري والفني؟ ألم تكن إيطاليا مسقط رأس عصر النهضة؟ نعم، لكن تبقى الحقيقة المؤلمة، وهي أن إيطاليا، باستثناء جمهورية البندقية (وفلورنسا قبل سيطرة أسرة ميدتشي عليها)، كان يحكمها السيف، وليس حكم القانون. وكان قادة الجماعات المرتزقة يسيطرون على الريف، وحتى مجيء العصر الحديث، ظل المسافرون فيها معتادين على استئجار حراس مسلحين[٣]. ولذلك لم تتطور المؤسسات السياسية والقانونية والمالية على المستوى الوطني مطلقاً في إيطاليا، وكما توضح قلة النمو فيها، فقد غدت أكثر ركوداً من الناحية الاقتصادية بعد عام ١٥٠٠م.

جمهورية غريبة جداً

كيف تحول مركز القوة الاقتصادية نحو شمال الألب؟ وكيف استطاعت هولندا أن تكون أول من يكسر القيود؟ وما الدروس التي يقدمها للعالم الحديث صعود هولندا إلى الهيمنة التجارية ثم تراجعها؟ لكي نجيب عن هذه الأسئلة لا بد أولاً أن نفحص "الحقائق على الأرض" في هولندا في أوائل القرن السادس عشر.

في القرون الوسطى المتأخرة سيطر أدواق بيرغندي على الأراضي الواطئة – هولندا – وفي عام ١٥٠٦م ورث هذه الأراضي كارلوس الأول ملك أسبانيا. وبعد ثلاث عشر سنة أصبح كارلوس الإمبراطور الروماني المقدس باسم تشارلز الخامس. جمعت فترة أوائل القرن السادس عشر، وهي أحد الخطوط الفاصلة الكبرى في التاريخ، خمسة لاعبين رئيسين: تشارلز الخامس وفرانسيس الأول ملك فرنسا وهنري الثامن ملك إنجلترا والبابا ليو العاشر ومارتن لوثر. تنافس الرجال الثلاثة الأُول بقوة على منصب الإمبراطور الروماني المقدس، ذلك المنصب الطقوسي بالدرجة الأولى الذي كان ليو يشرف على اختياره. وفي الوقت عينه أسهم الصراع الهائل بين البابا ليو ومارتن لوثر في

تغيير المسيحية إلى الأبد، ومعها التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي للعالم. يشكّل كفاح هولندا الملحمي من أجل الحرية وضد ورثة تشارلز من أسرة هابسبورغ وهرطقة لوثر الخلفية التاريخية والثقافية لصعودها إلى القوة الاقتصادية.

لعبت جغرافية هولندا المتفردة أيضاً دوراً أساسياً في صعودها الاقتصادي المبكر. فهولندا بلد منخفض بحكم وقوعها عند مصب أنهار الراين/ الوال/ الماس/ جيسل[٢] في بحر الشمال. ثمة ثلاث مناطق تميز طوبوغرافية هولندا:

- في ناحية البحر: مجموعة كثبان رملية حاجزة ترتفع حوالي عشرين قدما فوق مستوى سطح البحر.
- ما وراء الكثبان: حوالي نصف مساحة هولندا الحالية، أو ما يسمى البلدر[٣]، وهي في معظمها تحت مستوى سطح البحر.
- ما بعد البلدر: سهول رملية بالكاد فوق مستوى سطح البحر، وتتكون من تربة دقيقة غير منتجة رسبتها الأنهار الكبيرة على مدى القرون.

كان الماء يغطي البلدر قبل عام ١٣٠٠م تقريباً. وعلى مدار القرون الثلاثة التالية استخدم القرويون تقنية المضخة المخترعة حديثاً التي تعمل بالطاحونة الهوائية لبناء الحواجز الشهيرة لاسترداد الأرض المنخفضة من البحر. وبعد ذلك حفر الهولنديون طبقات الخُثّ التي كانت تغطي الأرض التي جفت حديثاً، وتخلصوا منها. وفي أثناء ذلك اكتشفوا واحدة من أغنى الأراضي الزراعية في أوروبا[٤].

حمل هذا المورد الثمين الغريب معه بذور الثورة الاقتصادية والاجتماعية. فقد أوجد شبكة من الجماعات الغنية المستقلة، دون أن تكون هناك بنية إقطاعية سابقة. ولم يحاول تشارلز الأول وابنه فيليب الثاني ملك أسبانيا أن يفرضا مثل هذه البنية.

---

(٢) أنهار Rhine وWaal وMaas وIjssel على التوالي [المترجم].

(٣) البلدر polder أرض منخفضة مستصلحة من البحر أو ناتجة عن انحساره [المترجم].

بينما جاء غزو فيليب في عام ١٥٦٨م، الذي أراد به أن يوقف انتشار الإصلاح اللوثري في بيرغندي، ليشغل ثورة في مقاطعاتها الشمالية استمرت ثمانين سنة، حتى عام ١٦٤٨م، عندما منحت أسبانيا الهولنديين استقلالهم رسميا.

يشير الاسم "هولندا" فنيًا إلى أكبر المقاطعات الهولندية الشمالية السبع. كانت أنتويرب، قبل حرب الاستقلال، المركز التجاري بالمنطقة ومركز التمرد. ومع سقوط أنتويرب في يد الأسبان في عام ١٥٨٥م، تولت أمستردام، عاصمة مقاطعة هولندا، القيادة سريعاً. كان سكان المقاطعات الستة الرئيسة الأخرى - زيلند، أوتريخت، فريزلند، غرونينجين، غيلدرلند، أوفرجيسيل - مجتمعة يزيدون قليلاً عن سكان مقاطعة هولندا. ومع أن هولندا كانت تضم أقل من نصف سكان الجمهورية الهولندية، فقد كانت تسيطر على المقاطعات الأخرى بسبب ثروتها الزائدة عنهم. فكانت هولندا تقدم حوالي ٦٠٪ من العوائد الضريبية للجمهورية وحوالي ٧٥٪ من القروض المطلوبة لدعم الثورة.

كانت الثورة الهولندية ضد أسبانيا، على غرار الحروب الدينية في ذلك العصر، عملاً بربرياً لا يوصف. كان الثوار، في الأصل، يريدون توحيد كل مقاطعات بيرغندي السبع عشرة، بينما كان المعتدلون يرون أن من الأفضل تقسيم المقاطعات الأسبانية إلى دولتين: دولة شمالية بروتستانتية، ودولة جنوبية كاثوليكية. كان الجزء الجنوبي، الذي يضم أنتويرب، قد خُرِب اقتصاديا بفعل الحكم الأسباني، وكذلك بفعل انفصاله عن جاره الشمالي المزدهر. انتقلت السيطرة على المقاطعات الجنوبية من أسبانيا إلى النمسا بعد حرب الخلافة الأسبانية[٤] في عام ١٧١٣م، ثم إلى فرنسا في أعقاب

(٤) حرب الخلافة الأسبانية (١٧٠١- ١٧١٤) حرب بدأت مع موت كارلوس الثاني ملك أسبانيا آخر ملوك سلالة هابسبورغ، الذي لم ينجب أبناء، فأورث كامل مملكته إلى حفيد أخته غير الشقيقة ماريا تريزا - إليزابيث فرنسا - من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، المدعو فيليب دوق أنجو، الذي أصبح ملك أسبانيا باسم فيليب الخامس. أصبحت أسرة البوربون بذلك تحكم أسبانيا وفرنسا، فضلا عن أن فيليب كان الوريث الشرعي لعرش فرنسا نفسها. طالب الإمبراطور الروماني المقدس ليوبولد الأول بالعرش الأسباني، وخافت=

الثورة الفرنسية في عام ١٧٩٤م، ثم عادت إلى هولندا بعد هزيمة نابليون في وترلو في عام ١٨١٥م. وبعد خمس عشر سنة ثار الجنوب ضد الحكم الهولندي، وأخيراً نال استقلاله باسم دولة بلجيكا.

ظهرت الدولة الشمالية إلى الوجود عندما تجمعت المقاطعات الثائرة في اتحاد أوتريخت الفضفاض في عام ١٥٧٩م. اعتنقت هذه الدولة مفهوماً جديداً مذهلاً، هو التسامح مع كل الأديان (أو على الأقل الأديان الغربية): البروتستانتية والكاثوليكية، واليهودية أيضاً[٥]. أزالت هذه الحرية الدينية قيود العقلية الأرسطية، وسمحت للدارسين والتجار بأن يسلكوا مسالك فكرية وتجارية ظلت مغلقة لقرون.

ولعل اللافت للنظر أكثر هو أن الصعود الاقتصادي الهولندي بدأ قبل وقت طويل من بداية حرب الاستقلال في عام ١٥٦٨م. فذروة الرخاء الهولندي حدثت بينما كانت هولندا تتحرر من أسبانيا في عام ١٦٤٨م. فضلاً عن أن المقاطعات الهولندية كافحت من أجل البقاء ضد وحش هابسبورغ الأسباني كدول مستقلة، أي دون حكومة مركزية. ولذلك تساءل المؤرخ يوهان هيوزنجا متعجباً "أين - إذن - كانت تستقر الحضارة التي بلغت ذروتها بهذه السرعة بعد ميلاد الأمة؟"[٦]

وعلاوة على ما تقدم، فقد كانت هذه الأمة الناشئة، بسبب تفاعل الأنهار والبحر والحواجز وتأثيرات العمليات العسكرية، مشهداً جغرافياً وسياسياً دائم التغير، حتى إنها في بعض الأحيان كانت لا تشبه الكيان الذي نسميه هولندا الآن إلا قليلاً.

=القوى الأوروبية الأخرى، على رأسها بريطانيا العظمى والجمهورية الهولندية والبرتغال ودوقية سافوي، من توسع النفوذ الفرنسي، فاتحدت في حربها ضد مملكتي البوربون، وامتدت الحرب من التراب الأوروبي إلى العالم الجديد. انتهت الحرب بتوقيع معاهدة أوتريخت عام ١٧١٣م ومعاهدة راستات عام ١٧١٤م التي أقرت فيليب الخامس ملكاً على أسبانيا، لكن مع استبعاده من خلافة العرش الفرنسي، للحيلولة دون الاتحاد المستقبلي بين مملكتي أسبانيا وفرنسا، وآلت معظم ممتلكات أسبانيا في إيطاليا وهولندا إلى النمسا، وتضعضعت الهيمنة الفرنسية على القارة الأوروبية (المترجم).

ومع أن التاريخ السياسي لهولندا أبعد من اهتمام هذا الكتاب، فيكفي أن نقول إنه قبل القرن التاسع عشر كانت السلطات الإقليمية والبلدية هي التي تتولى زمام السلطة. فلم يكن للهولنديين، في أي وقت، حكومة قومية قوية. وفي غالب الأحيان كان هؤلاء المسؤولون المحليون نخبة تجارية صغيرة تُنصّب نفسها ذاتياً. وكثيراً ما كان انتقال السلطة يحدث وراثياً.

أرض جديدة وبشر جدد

كان خلق أرض جديدة عملاً فذاً، وسيكون خلق بشر جديد عملاً ثورياً. كان على الهولنديين وهم يبنون حواجزهم أن يبنوا قنوات تصريف لنقل التسريب. وقد أصبحت هذه القنوات حدود المزارع حديثة النشأة. خلّف بناء الحواجز بنية كثيفة من الفلاحين الأحرار، كانوا يسيطرون على مزارعهم، متحررين من الالتزامات الإقطاعية. وهكذا كانت قوة النظام الإقطاعي القديم تتلاشى كلما اتجهنا شمالا من المقاطعات الجنوبية نحو البحر. وفي مرحلة الاستصلاح المبكرة وفر التنقيب عن الخُثّ وحرقه وقوداً جيداً للاستهلاك المحلي والتصدير.

تسببت مشروعات الاستصلاح أيضاً في خفض مستوى الأرض، وقد أدى ذلك إلى خسارة الأرض من حين لآخر لصالح البحر. ولذلك كانت صيانة الحواجز مهمة صعبة. وقد تكونت مجالس محلية وإقليمية مستقلة لتوجيه صيانة الحواجز، وهي عملية تميزت بالدرجة الأولى بالطاحونة الهوائية الهولندية.

دعمت مجالس التصريف وجود أمة سياسية هولندية كانت مستقلة بالفعل. يُذكّرنا ذلك بجذور المزارعين اليونانيين الأحرار - الإغريق - الذين استصلحوا الأراضي المرتفعة الحدية المطلة على الضياع الإقطاعية الكبيرة حول القرن التاسع قبل الميلاد. ففي

اليونان القديمة تغلب المزارع ذو الدافعية العالية نحو مزرعته الصغيرة على نوعية التربة الرديئة. لكن على خلاف ذلك كان المزارع الهولندي المستقل يزرع أرضاً مستصلحة فائقة الجودة.

لقد حظيت الأمة الجديدة، فضلاً عن التربة الخصبة، بفلاحين متحررين من القبضة الثقيلة للنظام الإقطاعي وعقيدة الكنيسة الخانقة. فللمرة الأولى منذ سقوط روما، كانت ثمار العمل تتراكم بالدرجة الأولى في يد مواطنين جمهوريين أحرار. فالمزارع الذي يبدع بنجاح كان يحصل على مكافأة عمله كاملة. وكذلك كان الفلاحون الهولنديون يستطيعون أن يفكروا فيما يشاؤون ويقولوا ما يشاؤون.

كانت المعركة ضد البحر طويلة وعسيرة، وتعرضت لنكسات متكررة، منها الفيضان الذي أغرق في عام ١٤٢١م أربعاً وثلاثين قرية وحوالي مائتي ميل مربع من الأرض، معظمها لم يُسترَد، ومنها أيضاً أن الحواجز تآكلت في عام ١٧٣٠م بفعل نوع من ديدان الأرض يسمى تيريدو ليموريا Teredo limmoria، ولزم دعمها بسطح حجري مكلف جداً.

لكن في غالب الأحيان كان وجود هولندا ساحراً. فبعد عام ١٥٠٠م أدى ما يسمى العصر الجليدي الصغير إلى خفض درجة حرارة الكوكب، وتسبب في هبوط في مستوى البحر، حيث ابتلع المياه رأس جليدي قطبي ضخم. ومع الوقت خفف ذلك كثيراً أعباء صيانة الحواجز. وفي القرن السادس عشر سُجِل أربعة عشر فيضاناً في هولندا، وسبعة في القرن السابع عشر، وأربعة في القرن الثامن عشر، وواحد في كل من القرنين التاسع عشر والعشرين[٧].

أسعار عالية وقنوات واسعة وأزمان تتسم بالوفرة

كان الهولنديون محظوظين في جانب آخر مهم. فبداية من حوالي عام ١٤٥٠م بدأت الأسعار في أوروبا في الارتفاع. والاقتصاديون عندما يصفون سعر سلعة معينة، يتحدثون بالدرجة الأولى عن "مرونتها". افترض أن دخلك انخفض لأي سبب. سيكون من الوارد في هذه الحالة أن تقلّل سفرك أو شراءك للسلع الإلكترونية، لكنك بالطبع لن تقلّل ما تأكله. يقول الاقتصاديون، في هذه الحالة، إن منحنى طلبك للطعام "غير مرن"، لأن طلبك للطعام لم يتأثر كثيراً بسعره. لكن في المقابل يعد السفر الترفيهي والأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية سلعاً "مرنة" جداً. فأنت إذا انخفض دخلك أو زادت أسعار الأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، فإنك ستشتري عدداً أقل منها.

عندما بدأت الأسعار في الارتفاع في منتصف القرن الخامس عشر، ارتفعت تكلفة الحبوب بدرجة كبيرة جداً. لكن الحبوب كانت الأكثر أساسية، ومن ثم الأقل مرونة، بين السلع الإنسانية في القرون الوسطى. ومن حيث المرونة، كانت الماشية تلي الحبوب، ثم المحاصيل الصناعية كالكتان والخشب وأخيراً السلع المصنعة، والأخيرة هي الأكثر مرونة بين الجميع. معنى ذلك أن أسعار السلع المصنعة ستكون أقل ارتفاعاً في حال ندرتها، بينما ستكون أسعار الحبوب أكثر ارتفاعاً.

في أواخر القرن الخامس عشر أدى الارتفاع السريع لأسعار الحبوب إلى زيادة قيمة الأرض الزراعية كثيراً. وقد أدى ذلك، بدوره، إلى تقدم في تقنية الهندسة المدنية لم يُلاحَظ منذ زمن الرومان. فتبنى المزارع الهولندي بهذه الدفعة نوعا جديداً من الطاحونة الهوائية، يسمى بوفينكروير bovenkruier، كانت تحتاج فقط إلى تدوير قمتها (في مقابل تدوير البناء كاملاً) لتوجيهها في مقابل الريح. وكذلك طور المهندسون الهولنديون بناء الحواجز. كانت أنظمة الطواحين الأولى تستطيع أن تنزح الحقول إلى

عمق قدم واحد فقط. لكن بحلول عام ١٦٢٤م أصبح بمقدور أنظمة الطواحين المتقدمة التي تعمل في سلاسل أن تنزح الماء حتى عمق خمسة عشر قدماً.

كانت الحواجز والطواحين مكلفة ولا تعيد تكلفتها إلا بعد عقود. لذلك كانت هناك حاجة إلى كميات كبيرة من رأس المال، كما أن هذه القروض لكي "تؤتي أكلها" كانت لا بد أن تتوفر بأسعار فائدة منخفضة. وبحلول منتصف القرن السادس عشر، كما رأينا في الفصل الرابع، كان المقرضون الهولنديون يموّلون مشروعات التشييد الكبيرة بأسعار فائدة تتراوح بين ٤٪ إلى ٥٪، وكان المزارعون يستطيعون أن يحصلوا على رهونات بأسعار أعلى قليلاً. (يشير تحديد آدم سميث إلى حوالي ٣٪ للقروض التجارية و٢٪ للقروض الحكومية إلى فترة لاحقة، وحتى هذه الأسعار فيها بعض المبالغة.) وبين عامي ١٦١٠م و١٦٤٠م استثمر المموّلون الهولنديون ١٠ ملايين غلدر في مشروعات الصرف، وهو مبلغ مذهل، يشكل قدراً كبيراً من ثروتهم القومية، وأكبر كثيراً مما استثمر في شركة الهند الشرقية الهولندية.

كانت هولندا محظوظة أيضاً في مجال أساسي آخر، وهو النقل. كان النقل المائي عموماً (ولا يزال) أرخص من النقل البري، خاصة قبل وصول قوة البخار. لم تكن أمة في أوروبا تنقل سلعها بالسرعة والرخص الذي كانت هولندا تنقلها به. فقد كان هذا البلد الصغير مستوي السطح تتخلله قنوات وممرات مائية، نتج كثير منها عن نشاط الاستصلاح. وقد أضاف الهولنديون إلى هذا النظام شبه الطبيعي للنقل المائي نظاماً من القنوات المزودة بطريق جانبي تسير فيه الخيول التي تجر المراكب والسفن، تسمى تريكفارت trekvaart، كانت تربط كل المدن الرئيسة بهولندا الساحلية.

في البداية كان النقل المائي الهولندي يكبله سلوك جباية المكوس المعتاد، الذي ناقشناه في الفصل الأول. لكن الجباة، في هذه الحالة، كانوا البلديات الواقعة على

الطرق المائية. وفي عام ١٦٣١م توصلت المدن الهولندية الرئيسة إلى شكل من اتفاقية التجارة الحرة، وبدأ ازدهار القنوات. كانت الملاحة في القنوات ترتبط في معظمها باستخراج الخُث، الذي أوجب حجمه الكبير أن يُنقَل مائيا بطريقة رخيصة. وعندما كان الطلب على الخُث عالياً والتجارة مربحة، اندفع بناء القنوات، ومع انخفاض الأسعار، أوقف رجال الأعمال المشروعات، وفي الغالب بنتائج كارثية على المستثمرين. وبحلول عام ١٦٦٥م كان الهولنديون قد شقوا حوالي أربعمائة ميل من القنوات المزودة بطرق للخيول، وهو ما وفر لهولندا أفضل نظام للنقل الداخلي في العالم[٨].

كان الهولنديون، بحلول عام ١٧٠٠م، أغنى شعب في العالم بالفعل، حيث كان الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد عندهم حوالي ضعف منافسهم الأقرب: الإنجليز. وكذلك كان الهولنديون يمتلكون نظاماً منقطع النظير للتمويل والنقل والبنية التحتية الحضرية. فكانت مشاهد المدينة في هولندا هي الأجمل في كل أوروبا، رغم أن الهولنديين على مدار معظم هذين القرنين من النمو السريع، كانوا يناضلون من أجل حياتهم، أولاً في حرب الاستقلال ضد الإمبراطورية الأسبانية، ولاحقاً في النزاعات مع فرنسا وإنجلترا.

تذكر من الفصل الأول أن أحد أفضل الطرق لقياس الرخاء في الأزمنة البعيدة تاريخياً يتمثل في حساب نسبة السكان الذين كانوا يعيشون في المدن، أي نسبة الحضر، وأنه كلما زادت هذه النسبة، زاد المجتمع رخاء. وفي منتصف القرن السابع عشر كانت المنطقة الساحلية من هولندا - أمستردام، هارليم، ليدن، هاجو، ديلفت، روتردام، جودا، أوتريخت - تعرف باسم راندستاد Randstad، أي "الحافة المدينية". كانت هذه المنطقة النسخة الأصلية للشريط الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة الذي كان يأوي حوالي ثلث سكان الجمهورية. وفي عام ١٧٠٠م كان ٣٤٪ من الهولنديين يعيشون في مدن يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة. وهذه النسبة تفوق كثيراً نسبة الـ١٣٪ في إنجلترا والـ٩٪ في فرنسا والـ١٥٪ في إيطاليا[٩].

الغلدر الرخيص

إن سعر السلعة الأهم في أي مجتمع هو سعر المال، أي أسعار الفائدة السائدة على القروض والسندات. وعندما يصبح المال عزيزاً (أي عندما تكون أسعار الفائدة عالية)، يتردد المستهلكون في الإنفاق، ويتردد رجال الأعمال في الاقتراض لتوسيع أعمالهم الحالية أو إنشاء أعمال جديدة، وعندئذ يعاني المجتمع. أما عندما يصير المال رخيصا (أي عندما تكون أسعار الفائدة منخفضة)، فإن المستهلكون ورجال الأعمال يقبلون على الاقتراض، وعندئذ يزدهر الاقتصاد.

ما الذي يحدد أسعار الفائدة؟ أشياء كثيرة، أولها وأهمها حالة ائتمان المقترض. فالبنك يقرض الشخص الجدير بالثقة الذي يمتلك ضماناً ممتازاً بسعر فائدة أقل بكثير مما يقرض شخصاً مشبوهاً لا يمتلك أصولا مرئية. وعلى مدى القرون السبعة الماضية أو نحوها كان المقترضون الأكبر في العالم الغربي هم الحكومات ذات الاحتياجات العسكرية الملحة. والحكومة ذات الدَين الصغير ومصدر الدخل الآمن من الضرائب والحيازة العقارية يمكن أن تقترض بفائدة منخفضة.

كما أن كبر حجم الاقتراض السابق يزيد أسعار الفائدة على المقترض. فالمقرضون بسبب الخوف من عدم قدرة المقترض على سداد مديونيته، يطلبون سعر فائدة أعلى للتعويض عن تلك المخاطر. والحكومة الغارقة في الدين تجد نفسها سريعاً في دوامة الموت المالي، حيث تكون ملزمة بسداد مستحقات فائدة كبيرة، بما يزيد سعر الفائدة التي يجب أن تدفعها على القروض الجديدة، بما يؤدي إلى مستحقات فائدة أعلى، وفي النهاية العجز عن السداد.

امتدت حروب الاستقلال الهولندية طويلاً إلى ما يناهز ثمانين سنة، وتضمنت تكاليف هائلة أرهقت الخزانات الإقليمية. لكن هولندا كانت دائما تجد نفسها في الجانب

الصحيح لمعادلة الاقتراض. فمع أن الموقف الهولندي كان ضعيفا دائماً، حيث تصطف مجموعة ولايات صغيرة ضعيفة حديثة الاستقلال قبالة واحدة من أعظم إمبراطوريات العالم – إنجلترا - تمتع الهولنديون بميزتين ماليتين كبيرتين. تمثلت الأولى في وجود قاعدة ضريبية من رسوم المبيعات على السلع الاستهلاكية اليومية. علاوة على أن هذه القاعدة الضريبية كان يدعمها سكان وطنيون راغبون في دفع ضرائبهم. وتمثلت الثانية فيما يسمى على نحو مبهج "مكتب الممتلكات الكنسية" الذي كان يضم أراضي الكنيسة الكاثوليكية المصادرة لبيعها لاحقاً، عادة بأسعار باهظة جداً. وكان جمهور الاقتراض الهولندي، ولاحقا المستثمرون الأجانب، يعتبرون المصدرين تأميناً ممتازاً. ولذلك كانت أسعار الفائدة الهولندية الأقل في أوروبا منذ البداية.

مولد الرخاء الهولندي و"موته"

الآن فقط أصبحت مصادر الرخاء الهولندي المذهل بعد عام ١٥٠٠م واضحة:

- سكان كانوا يتمتعون بحقوق مِلكية متينة، لا يضاهيهم فيها إلا الإنجليز.
- تحرر الهولنديون من عقيدة الكنيسة عن طريق حركة الإصلاح الديني. وقد أنقذ التسامح الديني الهولندي هولندا من أسوأ تجاوزات الانشقاق الديني التي أدمت الكثير من الولايات البروتستانتية المبكرة، خاصة في ألمانيا.
- أموال غزيرة للاستثمار من الأسواق المالية الهولندية التي نشطت بفعل أسعار الفائدة المنخفضة والحماية القوية للمستثمرين.
- طوبوغرافيا منبسطة وفرت نقلاً مائياً سهلاً ورخيصاً.

كان النمو السنوي للناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في هولندا (٠,٥٢٪) على مدى الفترة من عام ١٥٠٠م إلى عام ١٧٠٠م، كما ذكرنا في موضع سابق، ربع

معدل النمو في الغرب الحديث. ورغم أن ذلك كان يمثل تحسناً كبيراً عن الركود السابق، فإن هذه الزيادة لا تقترب حتى من مستوى نمو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد الذي يتحقق اليوم (٢٪).

كان معظم ذلك النمو يغذيه استصلاح الأراضي والارتفاع في أسعار السلع. وما أن توقف الاستصلاح واستقرت الأسعار حتى توقف النمو. كانت السرعة الفاترة نسبياً للنمو الهولندي ناتجة عن غياب التقنية التي لم يُقدّر لها أن تتوفر إلا بعد قرنين آخرين: قوة المصنع الذي يعمل بالبخار والنقل البري السريع والاتصالات الإلكترونية. فبدون هذه التقنيات ظل النمو السريع من النوع الحديث بعيداً عن متناول هولندا.

إن النمو الاقتصادي الهولندي الذي ظل ثابتاً، وإن كان متواضعاً، في سنوات الحرب الثمانين على أسبانيا، توقف بعد فترة ليست طويلة من نيل هولندا استقلالها في عام ١٦٤٨م. لذلك كان الهولنديون بالقرن الثامن عشر يدركون بمرارة أن أفضل أيامهم قد ولّت، وكانوا ينظرون بحنين إلى عام ١٦٤٨م باعتباره أوج عصر هولندا الذهبي. تكشف الأدلة أنه بينما اغتنى الأوليغاركيون الأثرياء أكثر، لم تتحسن ظروف المواطن العادي كثيراً في الأجيال التي تلت الاستقلال. وبحلول عام ١٧٥٠م، ومع أن الهولنديين ظلوا من أغنى شعوب الأرض، فإنهم لم يعودوا اللاعبين الأُول على ساحة العالم الاقتصادية والعسكرية.

إن أسباب أفول هولندا خلافية ومعقدة. أولاً: وكما رأينا قبل ذلك، فرغم امتلاك الهولنديين لثروة كبيرة لكل فرد، كانت الدول المنافسة تضم سكاناً أكبر بكثير. والأسوأ من ذلك أن المعدل الهولندي لنمو السكان كان أدنى بكثير من منافسيها الأكبر. ففي عام ١٧٠٠م كان عدد الهولنديين ١,٩ مليون نسمة فقط، في مقابل ٢١,٥ مليون فرنسي و٨,٦ مليون إنجليزي. ونتيجة لعدد سكانها الصغير، لم يتجاوز الناتج المحلي

الإجمالي لهولندا في أي وقت ٤٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي لإنجلترا أو ٢٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي لفرنسا[١٠].

ثانياً: تتضمن أية مناقشة لتجارة هولندا الداخلية والخارجية بالضرورة كلمة "احتكار". فقد حمى الهولنديون تجارة التوابل القادمة من جزر الهند الشرقية بقوة. وفي ذلك دارت أشهر المشاجرات الدبلوماسية في ذلك العصر حول تدمير المستوطنة الإنجليزية على جزيرة أمبون Ambon (في إندونيسيا المعاصرة) في عام ١٦٢٣م، حيث نكّل الهولنديون بمستوطنيها الإنجليز، وهو ما ألهب العلاقات الإنجليزية الهولندية لعقود. وفي هولندا نفسها أعاقت الاحتكارات النشاط التجاري. فالحكومة الهولندية، على سبيل المثال، رخصت لشركة واحدة فقط بإنتاج الخرائط الملاحية، وهو إجراء استمر حتى عام ١٨٨٠م.

ثالثاً: لم يكن الرخاء الهولندي يستند إلى تقدم تقني، ذلك المحرك الكبير للثروة الغربية الحديثة. صحيح أن المقاطعات كانت تمتلك نظاماً لبراءات الاختراع، لكنه لم يكن مفعّلاً. وصحيح أن بنّائي السفن حققوا تقدماً تقنياً حقيقياً في هذه الفترة، مثل سفينة الفلوت fluit، لكن التجديد التقني في هولندا عموماً كان متقطعاً. فكانت الحكومة في ذروة العصر الذهبي في منتصف القرن السابع تمنح حوالي عشر براءات اختراع سنويا، وبعد عام ١٧٠٠م كانت تمنح عدداً أقل كثيراً في السنة[١١]. لقد جاء الرخاء الهولندي من التجارة، خاصة مع منطقة البلطيق، التي كانت توفر الحبوب لتُنقل بالسفن والخشب ليقطّع في المصانع المشغّلة بقوة الرياح الجديدة. وكانت التجارة المربحة جداً مع جزر الهند الشرقية تكمل التدفق النقدي لهولندا.

رابعاً: لم يكن التمويل الهولندي ناجحا تماما. فقد كانت الحكومة تستطيع أن تقترض بسهولة وبأسعار منخفضة، لدرجة أنه مع وصول القرن الثامن عشر كانت

هولندا قد أغرقت نفسها بالدين. وحيث إن الحكومة كانت تدعم القروض بالرسوم الضريبية، فقد عمدت إلى رفع معدلات الضريبة. وأدت معدلات الضريبة المرتفعة إلى زيادات في الأسعار والأجور، وهو ما جعل السلع والخدمات الهولندية غير تنافسية[١٢].

أخيراً كان الجسم السياسي الهولندي ممزقاً إلى سبع ولايات شبه مستقلة، مجرد اتحاد سياسي فضفاض يقع على حافة قارة خطرة. وقد تسبب عدم وجود بنك مركزي قوي ونظام براءات اختراع قومي نشط في أضرار اقتصادية بالغة. لم يكن هذا الدرس غائباً عن الآباء المؤسسين للأمة الأمريكية، حيث كان الجهاز غير المركزي وما نتج عنه من مصير سياسي مؤسف لهولندا القرن الثامن العشر درساً حاضراً في أذهان المشاركين الفيدراليين في النقاش التأسيسي الأمريكي، الذين رأوا معضلة هولندا في "البلاهة" في الحكم، والنزاع بين المقاطعات، والنفوذ الأجنبي والإساءات الأجنبية، والسلام غير الدائم، والتعرض الدائم لكوارث الحرب"[١٣].

كان الاقتصاد الهولندي في القرن الثامن عشر "غير متوازن". فالقطاع التجاري النشط والمربح جداً كان ينتج رأس مال أكبر بكثير مما يمكن أن يمتصه الاقتصاد المحلي، الذي كبله النقص النسبي في التقدم التقني والقيود الاحتكارية. تمثلت نتيجة ذلك في فائض هائل من النقد الاستثماري، أخذ باطراد يخفّض أسعار الفائدة المحلية ويرفع الأسعار والأجور المحلية إلى أن أصبح قطاع الصناعة الهولندي غير قادر على المنافسة العالمية.

أصبحت هولندا مجتمع "الشَعر المستعار" periwig society، حيث يعيش قطاع ضيق جداً من السكان بالدرجة الأولى على دخل الاستثمارات ولا ينتجون إلا القليل. ومعظم رأس المال الفائض كان يستثمر في الخارج، خاصة في الولايات المتحدة، التي قدم الهولنديون لها ما بين ١٠٪ و٢٠٪ من ديون الحرب الثورية[١٤]. وكان من الغريب أن تكون أمة صغيرة على وشك خسارة أهميتها العالمية قادرة على أن تقدم هذا المال الكثير إلى بقية العالم.

في أواخر القرن الثامن عشر أثبت الاعتماد الهولندي على الدخل من الدين الخارجي أنه لعنة. فسداد الدين الأمريكي كان يضمنه فقط التدخل النشط من ألكسندر هاملتون. في حين ألحقت دول مدينة أخرى أضراراً كبيرة بهولندا. فأخذت الخسائر الهولندية تتصاعد بعد أن عجزت أمة بعد أخرى، منها فرنسا وأسبانيا، عن السداد.

جيران حاسدون

قبل أن ينجح مؤتمر فيينا في بسط الاستقرار على أوروبا في عام ١٨١٥م، كانت التجارة طريقة غير مضمونة للنمو الاقتصادي. فعلاوة على أن نمو الإنتاجية في التجارة كان أكثر بُطأ وأقل موثوقية منه في الصناعة، كانت التجارة أيضاً أكثر عرضة للتدخل الحمائي والحظر العسكري.

تولد التجارة الخارجية المزدهرة حسد الجيران الأفقر وريبتهم، وأخيراً انقضاضهم. كان ذلك في انتظار هولندا، أغنى أمم القرن السابع عشر، بعد فترة ليست طويلة. ففي منتصف القرن، وبينما كانت القوة الهولندية في أوجها، كان البريطانيون خارجين لتوهم من قوضى الحرب الأهلية، وكان حسدهم لرخاء هولندا واضحاً، واستغلوا أبسط الذرائع لإعاقة التجارة الهولندية. وفي ذلك قال أحد جنرالات الإنجليز "لا يهم هذا السبب أو ذاك. إن ما نريده هو المزيد من التجارة التي يستحوذ عليها الهولنديون"[١٥].

كان التوتر التجاري والعسكري الناتج بين هولندا وبريطانيا كارثياً على الهولنديين. امتدت أربعة حروب إنجليزية هولندية على مدى قرن ونصف تقريباً. بدأت النزاعات بعد سبعة أشهر فقط من إصدار إنجلترا لقانون الملاحة لعام ١٦٥١م (الذي حظر تجارة الطرف الثالث مع إنجلترا)، واستمرت حتى نهاية الثورة الأمريكية، مع اشتباك بحري قبالة الساحل الإنجليزي عند دوغر بانك Dogger Bank.

كانت هولندا، في حالة عدم الحرب مع إنجلترا، تتحالف معها ضد الفرنسيين، الذين أصبحوا أكثر عدوانية في أثناء الحكم الطويل للويس الرابع عشر. وفي عام ١٦٦٨م شكّلت إنجلترا وهولندا والسويد التحالف الثلاثي ضد لويس، لكن في عام ١٦٧٠م تخلى ملك إنجلترا المتقلب تشارلز الثاني عن التحالف، وترك الهولنديين يواجهون الغضب الفرنسي وحدهم. وبعد سنتين هاجمت فرنسا وإنجلترا هولندا.

كانت الحرب على هولندا مكروهة جداً في إنجلترا، تماماً مثل تشارلز الثاني. وفي وقت حرج في الحرب في عام ١٦٧٢م فتح الأمير الصغير وليام أورانج الحواجز الهولندية، فأغرق الأرض المنخفضة، وأعاق الجيش الفرنسي الغازي. وبعد وقت قصير وصل الأمير إلى منصب نائب الملك باسم وليام الثالث الهولندي. غيّرت إنجلترا مكانها في النزاع مرة أخرى، وتولى وليام تدريجياً قيادة التحالف المعادي للفرنسيين.

تزوج وليام، وهو بعد أمير، من ماري ابنة دوق يورك، الشقيق الأصغر لتشارلز الثاني. وعندما مات تشارلز أخيراً في عام ١٦٨٥م، اعتلى الدوق العرش الإنجليزي باسم جيمس الثاني، وهو ما رفع وليام من قائد هولندا ومشير التحالف المعادي لفرنسا إلى صهر الملك الإنجليزي.

انتقال الشعلة

كان جيمس كاثوليكيا متطرفاً، لكن معتقداته الدينية ليست هي التي أثارت عليه المنشقين والبرلمانيين المعارضين. فقد كان جيمس قد تجاوز الخمسين من العمر عندما اعتلى العرش، وسرعان ما ستخلفه ابنته البروتستانتية ماري. هكذا كان الجميع يظنون، إلى أن أُنجِب لجيمس ابن ووريث في يونيو ١٦٨٨م. فجأة، وعلى غير توقع، أخذ شبح سلسلة طويلة من الملوك الكاثوليكيين يهدد البروتستانت الإنجليز.

دعا الأنجليكانيون والمتشقون وليام إلى إنجلترا "ليتفاوض" مع جيمس. طرأت لوليام خطة جريئة، وهي أن يغزو إنجلترا ويخلع جيمس لكي يسيطر جيداً على الجيش البريطاني في معركته ضد الفرنسيين. نجح وليام أكثر مما دار في أجمل أحلامه. فبعد أن هبط على أرض توربای Torbay (في صحبة خمسة عشر ألفاً من أشد جنوده)، أصبح سلوك جيمس عصبياً جداً وتخلت عنه قواته. وبعد الثورة المجيدة لعام ١٦٨٨م اعتلى وليام وماري العرش معا. أكد ذلك التزام إنجلترا بالحرب على فرنسا، وكذلك تحولها إلى ملكية دستورية ديمقراطية[١٦].

أعطى اتحاد هولندا وإنجلترا بالزواج مهلة قصيرة للهولنديين. تورطت الجمهورية في سلسلة من الحروب القارية، في معظمها ضد الفرنسيين. وفي شتاء عام ١٧٩٤م نفد حظ هولندا أخيراً، مع تجمد أنهارها، الذي حال دون تكرار فتح الحواجز كما حدث سابقاً في عام ١٦٧٢م. كما جمّد الثلج معظم الأسطول الهولندي في مكانه، وقدم للجيش الفرنسي الثوري طريقاً سهلاً إلى أمستردام. علاوة على أن الفئة "الوطنية" الشعبوية غير المتقبلة للبنية السياسية الأوليغاركية لهولندا لم تعترض بشدة على غزو قوات الثورة لها. أنهت هزيمة نابليون لهولندا قرونا من الاستقلال. وفي غضون عقد دمر الفرنسيون اقتصاد هولندا بضرائب باهظة وكتبوا كلمة النهاية لقرون من القيادة التجارية الهولندية.

وبينما كانت منارة هولندا الاقتصادية والسياسية يخفت نورها، كان بعض أنبغ عقولها يعبرون بحر الشمال للمساعدة في إشعال انفجار في الثروة أكبر كثيراً.

إنجلترا

كان اعتلاء وليام للتاج البريطاني مَعْلَماً مهماً على طريق هولندا إلى الدونية العالمية، لكنه كان أيضاً نقطة التحول في حظوظ إنجلترا الاقتصادية. فمع خلع جيمس

الثاني انتقل مركز النمو الاقتصادي العالمي فجأة إلى إنجلترا. وفي غضون قرن من الثورة المجيدة، حدد آدم سميث بطريقة منظمة مصادر النمو الاقتصادي في كتابه "بحث حول طبيعة ثروة الأمم وأسبابها"[٥] (١٧٧٦م). ولأول مرة في التاريخ تُكشَف مفاتيح الرخاء جلية ليراها الجميع. وفي لمحة بصر تاريخية قبضت عليها إنجلترا ووظفتها بطريقة مذهلة.

يفاجئ القارئ الحديث عموماً أن يعرف أنه قبل القرن الثامن عشر كان الملوك الأوروبيون يفتقرون إلى التمويل العام المنتظم، لا يُستثنَى من ذلك ملوك أسرة ستيوارت (وهم بترتيب الخلافة جيمس الأول ثم تشارلز الأول ثم تشارلز الثاني ثم جيمس الثاني). فكان الحكم الملكي يلبي أغلب احتياجاته من ماله الخاص، بالدرجة الأولى من خلال حيازة الأرض، وفرض الرسوم الجمركية، وعلى نحو متزايد من خلال بيع الاحتكارات. وكان الملك يستطيع من حين لآخر أن يقنع البرلمان بفرض ضرائب، لكن فقط في الظروف الاستثنائية، وبالدرجة الأولى في زمن الحرب. وفي فترة ما قبل الحرب الأهلية كانت سلطة البرلمان المحدودة مستمدة بالدرجة الأولى من قدرته على توفير دخل ضريبي متقطع للتاج.

في السنوات الأخيرة من حكم آل تيودور[٦] فرضت ضرورات الحرب الحديثة طرقا مريعة. فبعد هزيمة الأسطول الأسباني في عام ١٥٨٨م، باعت إليزابيث ربع ممتلكات التاج لجمع المال، وباع جيمس بالمزاد قدراً أكبر من الثروة المَلكية للإنفاق على جيوشه.

بيع الباقي في عهد ابنه تشارلز الأول، الذي كان في حاجة إلى سيولة نقدية من

---

(٥) An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations هذا هو العنوان الأصلي لكتاب آدم سميث الذي يعُرَف اختصارا بأسم "ثروة الأمم"، وهو أحد الكتب التي غيّرت مجرى التاريخ الإنساني [المترجم].

(٦) آل تيودور هم الأسرة الملكية التي كانت تحكم قبل آل ستيورات [المترجم].

كل مصدر ممكن: مبيعات الاحتكارات، والضرائب المشكوك في مشروعيتها، والعطايا، وبيع الألقاب الوراثية، والقروض الجبرية التي كانت لا تسدد في الغالب، وأخيراً السرقة الصريحة. وفي المقابل رفض البرلمان، ونشبت حرب أهلية دامية، فقد تشارلز رأسه فيها.

أثبت برلمان كروميل[٧] عجزه هو الآخر عن استعادة الاستقرار السياسي والمالي، وأعيدت أسرة ستيوارت إلى العرش. ومرة أخرى أثبت التاج حماقته المالية، وهو ما أدى بالبرلمان إلى "دعوة" وليام ليأتي من هولندا. وقد نتج عن انتقال السلطة واحدة من أروع الصفقات في التاريخ، هي التسوية الثورية، التي وفر البرلمان خلالها لوليام قاعدة ضريبية مستقرة لتمويل حربه ضد فرنسا، وفي المقابل أعطى وليام للبرلمان السيادة القانونية[١٧]. وبذلك لم يعد بمقدور التاج أن يحل البرلمان، وألغيت قاعات النجوم Star Chamber سيئة السمعة، وهي محاكم مَلكية كانت أحكامها البربرية تبطل غالباً قضاء محاكم القانون العادي.

لم يعد بمقدور التاج أن يبعد القضاة، فالبرلمان وحده كان يمكنه أن يفعل ذلك، وفقط في حالة عدم الكفاءة أو الفساد. وكان البرلمان، بدوره، يخضع لسلطة الناخبين القوية، وإن كانت الثروة والنوع gender قد حدّا من هذه السلطة. وبذلك تطور نظام سياسي جديد: "التاج يطلب، ومجلس العموم يمنح، ويوافق اللوردات على المنح"[١٨].

نجح وليام والبرلمان بضربة واحدة في حل المشكلات السياسية والمالية الرئيسة التي كانت تؤرق الأمة. كان تأثير ذلك على أسواق المال البريطانية رائعاً. زادت الميزانية المَلكية

---

(٧) يُنسَب هذا البرلمان إلى أوليفر كروميل Oliver Cromwell (من ٢٥ أبريل ١٥٩٩م إلى ٣ سبتمبر ١٦٥٨م) القائد العسكري والسياسي الإنجليزي الذي أطاح بالمَلكية وحوّل إنجلترا مؤقتا إلى كومونويلث جمهوري، وحكم إنجلترا باسم اللورد الحامي Lord Protector من عام ١٦٥٣م حتى وفاته في عام ١٦٥٨م [المترجم].

أربعة أضعاف، وفي غضون جيلين وجد التاج نفسه قادراً على طرح قروض بأسعار منخفضة مثل الأسعار في هولندا، وهو أمر لم يكن أحد يتخيله في السابق. مهد تدفق رأس المال إلى الدولة الطريق لقناة مماثلة لرأس المال التجاري. فالبريطانيون العاديون الذين لم يعودوا يخافون من عدم السداد أو الحجز المَلكيين، بدأوا تدريجياً يثقون في أسواق رأس المال، كما كان الهولنديون من قبلهم. فأصبحوا، بتعبير المؤرخ الاقتصادي ت س آشتون، لا "يحتفظون بكميات كبيرة من العملات المعدنية والسبائك الذهبية والفضية حبيسة في الخزائن أو مدفونة في بساتينهم وحدائقهم"[١٩].

المزارع والمصانع

انظر هذه الإحصائية البسيطة جداً المتعلقة بنسبة القوة العاملة الإنجليزية التي كانت تعمل في الزراعة (الشكل رقم ٧,١). تقدم هذه النسبة مقياساً تقريبياً لرخاء أي مجتمع. فالأمة التي يعمل ١٠٠٪ من قوتها العاملة في الزراعة ولا تصدّر المواد الغذائية تكون، بالتعريف، عند حد الكفاف.

الشكل رقم (٧,١). نسبة القوة العاملة في مجال الزراعة في إنجلترا.

المصدر: Data from Maddison, The World Economy: A Millennial Perspective, 95, and Maddison, Monitoring the World Economy, 1820-1992, 39

لاحظ أن الانخفاض في الحجم النسبي لقوة العمل الزراعية حدث بشكل تدريجي جداً على مدار عدة قرون، وحدث أسرع انخفاض في منتصف القرن التاسع عشر بعد أكثر من قرن كامل من بدء الثورة الصناعية.

فكّر في هذه التجربة الفكرية الصغيرة: ابدأ بأمة افتراضية تنتقل من اقتصاد زراعي بالكامل إلى اقتصاد تعمل نصف قوته العاملة في المصانع. لكي تتجنب هذه الأمة استيراد الطعام لا بد أن يضاعف النصف الباقي في الزراعة إنتاجيته.

لكن في الواقع تحدث هذه العملية جزئياً فحسب، حيث تغلق واردات الغذاء والزيادات في الإنتاجية الزراعية النقص في العمل الزراعي. ومع ذلك فلكي تزدهر الأمة تكون الثورة الزراعية في نفس أهمية الثورة الصناعية. ورفع الإنتاجية الزراعية يعني قلة الحاجة إلى العمال الزراعيين، بما يضطرهم إلى البحث عن عمل في مكان آخر.

والأهم من ذلك أن كلاً من العمال الزراعيين والصناعيين يجب أن يتوفر معهم مال بعد أن يدفعوا ثمن الطعام والسكن ليشتروا السلع الصناعية الجديدة المتزايدة. يوضح التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة ذلك بجلاء. ففي السنوات المائتين بين عامي ١٨٠٠م و٢٠٠٠م زاد الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في الولايات المتحدة ثلاثين ضعفاً، وهو إنجاز رائع عكَسَ فترة الكفاءة التجارية والتجديد التقني غير المسبوقة. لكن في المقابل انخفض الحجم النسبي للقوة العاملة الزراعية - ذلك الجزء من الأمة المطلوب لإطعامها وإطعام معظم بقية العالم – من ٧٠٪ إلى أقل من ٢٪ في نفس الفترة. ولذلك زادت الإنتاجية الزراعية خمسة وثلاثين ضعفاً، أي أكثر من التقدم المذهل في الصناعة والتقنية. وفي النصف الثاني من القرن العشرين كانت الإنتاجية الصناعية الأمريكية تزيد بحوالي ٢,٦٪ سنويا، في مقابل ٢,١٪ للإنتاجية الزراعية[٨].

(٨) من وزارة العمل الأمريكية، مكتب الشؤون الاقتصادية. تُعرّف "الإنتاجية" في هذه الحالة بأنها ناتج كل ساعة عمل. وحيث إنه من المستحيل تقريباً تقدير عدد الساعات التي كان العامل يعملها قبل القرن التاسع عشر، تُستخدَم "الإنتاجية" في هذا الكتاب باعتبارها مرادف للناتج المحلي الإجمالي لكل فرد.

في وقت الثورة الأمريكية كانت إنجلترا مكتفية ذاتياً من الإنتاج الزراعي، مع تكافؤ بين صادرات وواردات الطعام. ومع غياب المصدر الموثوق ومعقول السعر لواردات الطعام من فرنسا المضطربة، كان لا بد أن تزيد إنتاجية إنجلترا الزراعية لكي تتمكن من التصنيع.

إن الجوانب الميكانيكية للثورة الزراعية مباشرة تماماً: جداول مُحسَنة للدورة الزراعية، وجداول حصاد، وما إليها. حدثت أكبر المكاسب نتيجة للتحسن في الوسائل اليدوية، مثل أدوات البذر والحصاد. وربما تمثل التقدم الأكبر في اختراع محراث روزرهام المثلثي في عام ١٨٣٠م، الذي وصفه ت آشتون بأنه "أكبر تحسن في تصميم المحراث منذ أواخر العصر الحديدي"، كان هذا المحراث يحتاج إلى حصانين فقط يقودهما رجل واحد. حل هذا المحراث محل الآلة المستطيلة التقليدية، التي كان يجرها فريق من ستة أو ثمانية ثيران، وتحتاج إلى سائق للثيران وحرّاث. في لحظة زادت الإنتاجية بالحراثة أكثر من ضعفين.

أصبحت إنجلترا البلد الأول الذي يطبق بطريقة قوية ومنظمة المنهج العلمي على الزراعة. وفي عام ١٨٣٨م صادق الملك على إنشاء الجمعية الزراعية المَلكية، التي تشكلت على غرار الجمعية المَلكية التي أوصى بها بيكون. وبعدها بخمس سنوات أسس العلماء محطة روزامستيد للبحوث الزراعية، وبدأوا في إجراء التجارب المنظمة الأولى على إنتاجية المحاصيل.

كان إنشاء هذه المنظمات مؤشراً على بداية المقاربة العلمية للزراعة التي أعطت مردوداً فورياً في تقنية الزراعة، خاصة إضافة النتروجين. فالزراعة الكثيفة سرعان ما استنفدت النترات من التربة، التي تُعوّض ببطء فقط بتحول ("تعقد") النتروجين الجوي ثانية إلى نترات مغذية للنبات عن طريق البكتيريا. وسرعان ما تحققت محطة روزامستيد من

أن البرسيم والبقوليات تجذب البكتيريا التي تُثبّت النتروجين، واستنتجت أن المزارعين يستطيعون أن يضاعفوا محاصيلهم بمجرد بذر البرسيم بين كل حصادين.

كانت نتائج إضافة النترات من السماد الحيواني أكثر وضوحاً. كان السماد من المصادر التقليدية – حيوانات المزارع – غالياً، ولم يمض وقت طويل حتى وُجدت بدائل، أولاً في رواسب الغوانو[٩] من جزر العالم الجديد، ولاحقا في النترات الصناعية.

خصخصة الريف

كان هذا التقدم التقني مجرد جزء من قصة انفجار الإنتاجية الزراعية البريطانية. كان التقدم المؤسسي لا يقل أهمية. كان من أبرز الملامح في هذا الأخير حركة التسييج[١٠] التي بدأت في القرون الوسطى وبلغت ذروتها بعد عام ١٦٥٠م. قبل هذا التاريخ كانت إنجلترا وبقية أوروبا القرون الوسطى تعمل بالدرجة الأولى بـ"نظام الحقل المفتوح"، وهو أحد مخلفات الفترة الإقطاعية، حيث كان المزارعون والإقطاعيون يمتلكون رقعاً اسعة مشاعة في الأرض.

وكما جاء في وصف غاريت هاردن الرائع في مقالته "مأساة المشاع"، كانت الزراعة في ظل غياب حقوق الملكية الواضحة تغذي عجزا اقتصاديا مكبلا، إذ لن يحرث المزارعون الأرض المشاع أو يسمدوها بجدية، أو غير ذلك من طرق التحسين[٢٠]. (المقابل الحديث لهذا المبدأ يُنسَب إلى لورانس سمرز رئيس جامعة هارفارد ووزير المالية الأمريكي الأسبق: "لم يحدث مطلقاً في تاريخ العالم أن غسل شخص سيارة مستأجرة"[٢١]).

---

(٩) الغوانو guano سماد طبيعي من ذرق الطيور البحرية [المترجم].

(١٠) التسييج enclosure هو عملية وضع سياجات للأراضي أو تعيين حدود لها لتصبح ملكية فردية تُوَرث بعد أن كانت أرضاً مشاعاً للزراعة وللرعي. بحلول القرن التاسع عشر صارت الأرض المشاع غير المُسيّجة في أوروبا تقتصر على المراعي الوعرة في المناطق الجبلية [المترجم].

بعد اتفاقية رانيميد سوَّر الإقطاعيون والقرويون أو "سيّجوا" الأراضي المشاع ووضعوها في أيدي خاصة. وبحلول عام ١٧٠٠م كان نصف كل الأرض المفتوحة تقريباً قد خُصخص. كانت كل عملية تسييج تتطلب أن يوقع ملاك أربعة أخماس الأرض في الدائرة الإدارية على عريضة التسييج التي كانت تُرسَل إلى البرلمان. وقد أقر مجلس العموم آلافاً من هذه الصكوك الخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

أصدر البرلمان، في عام ١٨٠١م، القانون العام للتسييج الذي نظم الإجراءات. كانت حركة التسييج قد تسارعت كثيراً بعد عام ١٧٠٠م، وبحلول عام ١٨٣٠م كانت الأرض المفتوحة قد انتهت من إنجلترا. تم تسييج القدر الأكبر من الأرض في فترة ما بين الثورة الأمريكية والحروب النابليونية، حيث أدى الارتفاع الكبير في أسعار الحبوب إلى رفع قيمة الأرض الزراعية الخاصة. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت الأرض المشاع قد اختفت تقريباً[٢٢].

رافق التسييج موجات من الضجة والغضب الأدبيين والتاريخيين، ومع أن قلة صغيرة من المزارعين طُرِدت جوراً من أرضها، يتفق معظم المؤرخين الآن على أن الانشغال الإنجليزي بحقوق الملكية وعدالة الإجراءات قد رُوعي، وأن العملية في مجملها كانت عادلة ومنصفة. زاد عدد ملاك الأراضي الصغار بشكل ملحوظ، حيث منحت صكوك التسييج الملكية للأسر التي كانت ترعى هذه الأشرطة المشاع الصغيرة على مدى أجيال. وللمرة الأولى أُعطيَ هؤلاء الملاك الصغار حق اختيار بيع الأرض أو زراعتها[٢٣،٢٤].

ليس معنى ذلك أن التسييج لم يكن مؤلماً. لكن الفوضى الاجتماعية الريفية والحضرية التي تلت التسييج لم تكن بسبب الاستغلال المتعمد للفلاحين. وإنما نتجت الأزمة بالأحرى عن ضرورة اقتصادية: الأرض المُسيّجة تنتج طعاماً أكثر بكثير من

الأرض المشاع، وتتطلب مزارعين أقل لكل هكتار، ولذلك تطرد أعدادا كبيرة من العمال الزراعيين من عملهم.

لم يؤد توفر العمالة الناتج عن التسييج إلى مشكلة في السنوات الذي سبقت الحروب النابليونية، حيث أدى ارتفاع أسعار الحبوب إلى إدخال مساحات واسعة من الأراضي الحدية في الإنتاج، وحافظ على العمالة في مجال الزراعة. لكن الوضع اختلف بعد اختتام مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥م، حيث انخفضت الأسعار فوراً وظلت منخفضة حتى جاءت الحرب الكبرى التالية بعد قرن. فخرجت الأرض الحدية من الإنتاج، وأغرق عمال الزراعة العاطلون المدن والمصانع.

وقد اجتمعت المقاربة العلمية الحديثة في الزراعة ومد حقوق الملكية الواضحة إلى مجموعة جديدة من ملاك الأراضي الصغار لينتجا طبقة جديدة من المنتجين، هم "المزارعون المُحسّنون" الذين سعوا إلى زيادة غلة المحاصيل من خلال التقنيات الزراعية الجديدة.

تقسيم العمل

لم يكن ثمة شيء مما ندعزه الثورة الصناعية أو الثورة الزراعية، بل كانت هناك ثورة في الإنتاجية والتخصص، حيث أعطى التطور الجارف في حقوق الملكية والعقلانية العلمية والأسواق المالية والنقل والاتصال الحديثين للمزارعين والمخترعين ورجال الصناعة الحافز للإبداع. وقد أنتج هؤلاء الرأسماليون الجدد قدراً وتنوعا أكبر من كل شيء تقريباً. وفي أثناء ذلك رفعوا مستوى المعيشة العام لكل الإنجليز.

إن درجة التخصص هي التي تميز العصر الحديث عن القرون الوسطى، أكثر من أي ظاهرة أخرى. ففي عالم القرون الوسطى كان هناك "توصيف وظيفي" أساسي

واحد ينطبق على الجميع تقريباً، ألا وهو فلاحة الأرض. وفي الفترات التي كان يقل فيها العمل الزراعي، كان الفلاحون يبنون بيوتهم ويرممونها، ويساعدون في بناء الطرق الإقطاعية، ويغزلون غزلهم، وينسجون قماشهم، ويحيكون ملابسهم. ففي بواكير الثورة الصناعية كان معظم النسج التجاري لا يتم في مصانع، وإنما كانت تقوم به في بيوتها أسر زراعية تتعطل موسمياً عن العمل. وفي العالم ما قبل الحديث كانت الجماعات الصغيرة، وحتى معظم الأسر، مكتفية ذاتياً بالكامل تقريباً.

لكن من غير المتصور اليوم أن تقوم جماعة واحدة، ناهيك عن أسرة واحدة، بإنتاج جزء صغير من السلع والخدمات التي تستهلكها. تقوم وزارة العمل الأمريكي كل عقد أو نحوه بتحديث "معجم الألقاب المهنية"، وقد اشتملت أحدث طبعة منه على ١٢٧٤٠ توصيفاً وظيفياً مختلفاً.

يمكن تشبيه الرخاء الحديث بمِزوّد[١١] السيارة، وفيه يمثل المحرك العوامل الأربعة الأساسية – حقوق الملكية والعقلانية العلمية وأسواق رأس المال والنقل والاتصال الحديثان – وتمثل العجلات الإنتاجية الناتجة. و"جهاز نقل الحركة" الذي ينقل القوة من المحرك (العوامل الأربعة) إلى العجلات (الناتج المحلي الإجمالي) هو درجة التخصص في العمل. والاقتصاد قليل التخصص يطقطق عند السرعة الأولى، فيما يجري الاقتصاد عالي التخصص بسلاسة.

مع مجيء الثورة الصناعية كانت عملية التخصص متقدمة فعلا. وقد خلدها آدم سميث باسم "تقسيم العمل". وعرضه لهذا المبدأ مطبقا على صناعة دبوس الورق المتواضع لم نتجاوزه إلى اليوم:

---

(١١) المزوّد drivetrain أو powertrain أو powerplant هو مجموعة المكونات التي تولد القوة وتنقلها إلى سطح الطريق أو الماء أو الهواء، وهي تضم المحرك وجهاز نقل الحركة وعمود الإدارة، من بين مكونات أخرى [المترجم].

إن العامل الذي لم يتعلم هذا العمل (الذي جعله تقسيم العمل حرفة مميزة) وغير الملم باستخدام الماكينات المستخدمة فيه (الاختراع الذي أخرجه تقسيم العمل نفسه إلى الوجود) يستطيع بالكاد، بكل ما أوتي من كد ومثابرة، أن يصنع دبوساً واحداً في اليوم، وبالتأكيد لا يستطيع أن يصنع عشرين دبوساً. لكن بالطريقة التي يتم بها هذا العمل الآن لا يصبح العمل كله حرفة منفصلة فحسب، بل يقسم أيضاً إلى عدد من الفروع، كل واحد منها بمثابة حرفة مميزة. فعامل يسحب السلك، وآخر يفرده، وثالث يقطّعه، ورابع يدببه، وخامس يشحذه من أعلى لتلبيس الرأس، وصنع الرأس نفسه يتطلب عمليتين متمايزتين أو ثلاث: تلبيسها للعمود وتبييضها، بل إن وضع الدبابيس في الورق حرفة قائمة بذاتها. وهكذا ينقسم عمل صنع الدبوس إلى حوالي ثمان عشرة عملية متمايزة، تؤديها في بعض المصانع أيدي مختلفة، وفي مصانع أخرى ينتج نفس العامل دبوسين أو ثلاثة[٢٥].

وصف سميث حتى كيف يمكن لورشة بسيطة تستخدم عشرة عمال لتغطية الخطوات الثمانية عشر المنفصلة أن تنتج ٤٨٠٠٠ دبوسٍ في اليوم، أي أكثر بـ٢٤٠ مرة مما يمكن أن ينتجه عشرة عمال غير مهرة كل منهم يصنع الدبوس كاملاً.

كيف يحدث ذلك؟ إن تقسيم العمل هو الآلية التي تترجم التجديد التقني إلى ثروة. وهو يعمل على هذا النحو: تبسيط المهام يوسع عدد العمال المتاحين، حيث ينجذب كل عامل إلى العمل الذي ينتج فيه أكثر، ثم يصبح من خلال الخبرة أكثر مهارة فيه.

إن تقسيم التصنيع إلى مهام صغيرة كثيرة منفصلة يشجع الإبداع التقني، حيث إن الماكينات المصممة لعمل معين تكون سهلة نسبياً في اختراعها وتحسينها. وكلما حسّن المبتكرون هذه الماكينات، قلت المهارة المطلوبة لتشغيلها، وهو ما يوسع عدد العمال أيضاً ويقلل الأجور التي يجب أن تدفع[٢٦].

ثمة مثال حديث يوضح هذا المبدأ. في عام ٢٠٠١م سجلت الشركة الجنوبية الغربية للخطوط الجوية ٤٤,٥ مليار ميل سفر باستخدام ٣١٦٠٠ موظف[٢٧]. على فرض أن كل موظف عمل ألفي ساعة في تلك السنة، فإن ذلك يعطينا ٧٠٤ أميال

لكل ساعة عمل للموظف، وهو أسرع عشرة مرات مما يمكنك أن تنقل نفسك بسيارة حديثة في ساعة من عملك، وأسرع مائتين مرة مما لو مشيت على قدميك.

إن الأساس للشركة الجنوبية الغربية للخطوط الجوية هو الطيار والطائرة بوينغ ٧٣٧. لكن لولا تقسيم العمل المعقد الذي يوظف مئات الأنواع المختلفة من الموظفين وتشكيلة محيرة من الآلات الميكانيكية والإلكترونية، لما توفر الطيار والطائرة لنقلك ورفاقك المسافرين من لوس أنجليس إلى بالتيمور ببضع مئات من الدولارات.

إن البشر مبتكرون بطبيعتهم. ومع أن الأرض منذ فجر التاريخ لم تعدم الأذكياء والمبتكرين في كل مكان، فإن إبداعاتهم لا يمكن أن تترجم إلى رخاء ونمو واسعين إلا حين يكون هناك تقسيم للعمل.

النسيج الكامل للثروة

تركز مهد التحول الاقتصادي في إنجلترا حول مجموعة مصانع النسيج في مانشستر وحولها. وبتعبير المؤرخ الاقتصادي إيريك هوبزباوم Eric Hobsbawm، فإن "من يذكر الثورة الصناعية يذكر القطن"[٢٨]. كان المزارعون وأسرهم منذ القدم يغزلون ملابسهم وينسجونها من ألياف الكتان. وكان المزارعون يزرعون هذا المحصول على نطاق واسع في أوروبا، حيث كان معظمهم يزرعون رقعاً صغيرة من الأرض لسد احتياجاتهم، وكذلك للمقايضة بها أو بيعها. وكان الصوف هو المصدر الرئيس الآخر للقماش، وعلى مدى القرون كانت الخراف مصدر إنجلترا الرئيس للتجارة.

كانت إنجلترا نفسها تنتج قدراً صغيراً من القطن المحلي، لكن نوعيته كانت رديئة. وكان الطريق البري يأتي بكميات صغيرة جداً من القماش الحريري المستورد الغالي للأسرة المالكة والتجار الأثرياء، فضلاً عن المواد القطنية عالية النوعية خاصة الكاليكو أو الشيت

من شبه القارة الهندية. كانت هذه الأقمشة غالية أيضاً، ليس بسبب ندرتها أو تكلفة تصنيعها العالية، وإنما بسبب رسوم الاستيراد العالية. ولما فتح البرتغاليون والهولنديون والإنجليز التجارة البحرية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (عن طريق شركة الهند الشرقية) زاد العرض، لكن ليس بما يكفي لخفض الأسعار بدرجة كبيرة.

كان إنتاج السلع الصوفية والكتانية والقطنية "صناعة منزلية". فكان الأطفال ينظفون المادة الخام، والنساء يغزلنها، والرجال ينسجونها قماشاً. كان الحرفيون يصنعون بالطبع أقمشة صوفية عالية الجودة، لكن عملهم ظل على نطاق ضيق. ولم يكن التخصص في العمل قد انتشر على أي مستوى إنتاجي، ولذلك ظلت التكلفة عالية والناتج منخفضاً. ومن المفيد أن تتصور سلسلة الخطوات التي تبدأ من القطن الخام إلى القماش النهائي.

النقطة الأساسية في هذا المخطط هي أن أي تحسين في صناعة القماش كان يتطلب تحسينات مكافئة في كل الخطوات الثلاث في العملية: تمشيط البذور وغيرها من الشوائب الصغيرة من القطن الخام، وغزل القطن الممشط إلى خيوط، ونسج الخيوط إلى منتج تام الصنع. والتحسن في خطوة واحدة فقط كان من شأنه أن يخلق اختناقاً في الخطوتين الأخريين.

وهذا بالضبط هو ما حدث مع أول تقدم حديث في تقنية النسيج، حين اخترع الساعاتي جون كاي John Kay في عام ١٧٣٣م ماكينة نسج ممتازة (المكوك الطائر). ورغم أن هذه الماكينة كانت أفضل كثيراً من النول القديم، فقد أحدثت نقصاً حاداً في النساء الغزّالات. وقد كانت صناعة القماش تتوقف في وقت الحصاد، لأن النساء كن

يذهبن إلى الحقول للمساعدة في الحصاد. وفي عام ١٧٤٨م ابتكر لويس بول Lewis Paul ماكينتين لتمشيط الليف الخام الذي كان مضنياً في السابق بسحبه عبر صفوف من المسامير مسمرة على ألواح. لكن للأسف أدى اختراع بول فقط إلى زيادة الطلب على الغزالّات المرهقات فعلاً بسبب الطلب الزائد عليهن.

كان الغزل[١٢] هو المشكلة الأصعب في حلها، لأن الآلات المتوفرة في ذلك العصر لم تستطع أن تحاكي الفتل الحساس الذي كان يحدث بين إبهام المرأة وسبابتها. انتشر دولاب الغزل المشتق من المغزل القديم على نطاق واسع في القرون الوسطى المتأخرة، لكنه كان يستخدم فقط لدس الخيط المغزول في وشيعة المكوك. لكن يدي المرأة الحساسة ظلت أساسية لغزل الخيط في البداية.

في أواخر القرن الثامن عشر ساعدت سلسلة من الاختراعات أخيراً في أتمتة العملية. فقد اكتشف لويس بول فكرة لمحاكاة أصابع الغزالّات بأزواج من البكرات الحديدية، لكن ماكينته لم تعمل جيداً. وفي عام ١٧٦٩م أضاف ريتشارد أركرايت Richard Arkwright زوجاً ثانياً من البكرات "للإطار المائي" الذي اخترعه من قبل، فكان أول ماكينة غزل ميكانيكية عملية. ولاحظ جيمس هارغريفز James Hargreaves أن دولاب الغزل لا يتوقف عن العمل بعد أن يقع على جانبه، فاستخدم هذه الملاحظة لإحداث "فتلة" أخرى في الغزل. وفي عام ١٧٧٩م دمج صمويل كرومبتون Samuel Crompton دولاب هارغريفز الدوار مع بكرت أركرايت في "مغزله الآلي".

ركّب كرومبتون هذه الآلة المعقدة جداً على عربة تتحرك للخلف وللأمام وهي تغزل الخيوط. من المبادئ الأساسية للتجديد التقني أن الآلات المعقدة التي تحسّن الإنتاجية تطلب عادة مهارة من المشغّل أقل من الآلات الأقدم. فماكينة الخياطة، على

(١٢) الغزل هو عملية تحويل المادة الخام الممشطة، سواء القطن أو الصوف، إلى خيوط، والنسج هو تحويل تلك الخيوط إلى قماش [المترجم].

سبيل المثال، تنتج حواشي أكثر سرعة وقوة واستقامة مما يمكن أن تنتجه أمهر خيّاطة تستخدم إبرة وخيط، ويمكّن الحاسوب الشخصي الحديث حتى المؤلف الأخرق متوسط العمر من إنتاج وثائق أفضل من تلك التي كانت أعلى آلات الطباعة تنتجها قبل مائة سنة. وسهولة العملية تنتج غالباً عن تعقيد التصميم.

أثبت مغزل كرومبتون الآلي هذا المبدأ منذ وقت مبكر. فعامل المصنع، بقليل من التدريب، كان ينتج خيطاً ناعماً بخانات مختلفة، وهو شيء لم يكن بمقدور أكثر أسلافه مهارة[٢٩]. وفي غضون بضع سنوات جمع أصحاب المصانع بين محرك واط- بولتون البخاري وماكينة الغزل، وبذلك اكتمل التحول الميكانيكي لهذه العملية المهمة.

لم يسرع أصحاب المصانع في أتمتة النسج. ففي البداية كانت كميات الغزل الضخمة المنتجة ميكانيكياً تقدم ثروة للنساجين. وحتى وقت متأخر، تحديداً عام ١٨١٣، كان ١٪ فقط من أنوال إنجلترا الـ٢٥٠٠٠٠ تعمل بقوة ميكانيكية، وقد تسببت مقاومة النساجين للأتمتة والتصنيع في كارثة لهم مع نهاية القرن التاسع عشر[٣٠].

كان إنتاج القطن الممشط يتضمن التخلص المضني من البذور، وهي عملية غالية وشاقة. وقد جاء اختراع إيلي ويتني Eli Whitney لمحلج القطن في عام ١٧٩٣م ليقضي على هذا العائق. وبين عامي ١٧٩٠م و١٨١٠م زاد إنتاج القطن الأمريكي من ١,٥ مليون رطل إلى ٨٥ مليون رطل سنويا. أعاد اختراع ويتني ترتيب مشهد الاقتصاد العالمي بطرق لم تفعلها اختراعات كثيرة. لكنه للأسف حوّل المشهد السياسي الأمريكي أيضاً. ففجأة أصبحت صناعة القطن، ومعها العبودية، مربحة جداً. لذلك زاد عدد العبيد في الولايات المتحدة بين عامي ١٧٩٠م و١٨٥٠م من ٧٠٠٠٠٠ إلى ٣٢٠٠٠٠٠ شخص[٣١].

أغرق القطن السوق العالمية. واختفت السلعتان الإنجليزيتان القديمتان - الكتان والصوف - تقريباً. ولأول مرة أصبحت الجماهير الكادحة من المزارعين وفقراء الحضر

قادرة على اقتناء ملابس قطنية رخيصة. انخفض سعر القماش القطني من ٣٨ شلنا للرطل في عام ١٧٨٦م إلى أقل من ١٠ شلنات في عام ١٨٠٠م. على أن المنسوجات سلع "مرنة" جداً، بمعنى أن التراجع الصغير نسبيا في سعرها يؤدي إلى زيادات كبيرة في الطلب. وكما أثبت انخفاض أسعار الحواسب الشخصية أنه نعمة للمبيعات، كذلك حدث انفجار في استهلاك المنسوجات في أوائل القرن التاسع عشر. كان القطن أول "صناعة نمو"(١٣) حقيقية في التاريخ. وعلى مدار نفس الأربعة عشر سنة ارتفعت واردات القطن الإنجليزية عشرة أضعاف، وفي عام ١٨٤٠م إلى خمسين ضعفاً[٣٢]. نشأت تجارة مثلثية واسعة حول ليفربول باعتبارها ميناء مانشستر: يأتي القطن الخام من أمريكا إلى بريطانيا، ويذهب القماش المُصنّع من بريطانيا إلى أفريقيا، حيث تُشحَن أعداد كبيرة من العبيد من أفريقيا إلى أمريكا، إلى أن حُرّمت تجارة العبيد في عام ١٨٠٨م. وبعيداً عن فظاعة العبودية، أحدث توفر الملابس القطنية الرخيصة فوائد لا نزال في بداية الطريق إلى فهمها. فمن الوارد، على سبيل المثال، أن تكون الملابس القطنية الداخلية الرخيصة والوفيرة تسببت في التراجع الجذري للأمراض المعدية بعد عام ١٨٥٠م. فأكثر الأمراض فتكاً في ذلك العصر – الكوليرا والتيفود – كانت من أمراض المعدة والأمعاء، ولذلك تنتشر بالتلوث البرازي– الفمي. كما أنها لا تحترم الطبقة الاجتماعية. من ذلك أن ألبرت حبيب الملكة فيكتوريا وزوجها مات في عام ١٨٦١م بالتيفود. قضت هذه المواد القطنية البسيطة على التهيج والالتهاب اللذين كان يسببهما تغيير الملابس المكونة من طبقة واحدة على فترات طويلة، وهو ما قلل انتقال المرض وأنقذ حياة ملايين الناس[٣٣].

(١٣) صناعة أو صناعات النمو growth industry هي القطاع أو القطاعات من الاقتصاد الذي يشهد معدل نمو أعلى من المتوسط [المترجم].

العصر الحديدي الجديد

كان الحديد المجال الرئيس الآخر للتقدم الصناعي. كان إنتاج الحديد، فيما قبل العصر الحديث، يتطلب الصهر أو التنقية بالفحم النباتي، وبحلول القرن الثامن عشر كانت مسابك إنجلترا قد استنفدت الغابات القريبة. فاتجهوا إلى قطع الأشجار الأسكتلندية لمصانع وسط البلاد، ووجد المهندسون البريطانيون أن من الأرخص أن يستوردوا الحديد من السويد. ووجدت المسابك البريطانية أن من الأرخص أن تستورد الخشب الأسكندنافي لأن النقل المائي فيما قبل العصر الحديث كان أقل تكلفة بكثير من النقل البري، حتى أن النقل بالسفن من بحر البلطيق كان بتكلفة عشرين ميلاً تقريباً من النقل البري بتكلفة إنجلترا.

كانت إنجلترا تتمتع بوفرة في فحم الكوك، لكن الاستعاضة به عن الفحم النباتي في الأفران كانت تتطلب منفاخ تهوية أقوى. ولهذا الغرض عدّل واط ويولتون في عام ١٧٧٥م محركاتهم البخارية من أجل منفاخ مصنع الحديد التابع لجون ويلكنسون. وبعد عقد أدخل هنري كورت Henry Cort طريقة "التسويط[١٤]" التي جعلت الإنتاج الضخم المستمر للحديد عالي الجودة ممكناً. وبعد ذلك اخترع ويلكنسون مطرقة بخارية لتشطيب المنتج النهائي من عملية كورت بـ١٥٠ طرقة في الدقيقة.

حرّر ابتكار كورت إنجلترا من اعتمادها على الخشب النادر جداً، بما حرم السويد الغنية بالخشب من ميزتها التاريخية. في السابق كان الحديد الأسكندنافي المستورد أفضل من المنتَج الإنجليزي، ولذلك احتاج الصناع المحليون والأجانب بضع سنوات للتعود على فكرة المنتَج البريطاني الأفضل. وكما هو الحال مع القطن، ارتفع الإنتاج كثيراً. فبين عامي ١٧٧٠م و١٨٠٥م انخفضت التكلفة وزاد الناتج عشرة أضعاف تقريباً.

---

(١٤) تتم عملية تسويط الحديد بإضافة عامل مؤكسيد إلى ذائب الحديد لجعله حديداً مطاوعاً [المترجم].

وأخذت كميات الحديد الهائلة الموجهة إلى السكك الحديدية والجسور والمباني الجديدة تتقاطر من المسابك الضخمة.

على أن التقدم الذي وصفناه في صناعة القطن والحديد لم يتوقف عند حد مغزل كرومبتون الآلي أو عملية كورت لتسويط الحديد. فقد شهدت العقود التالية عملية تحسين متواصلة. فاتسعت مساحات المسابك كثيراً، وأصبحت تحتاج كمية فحم أقل لكل طن من الحديد، وتنتج نوعية منتج أعلى كثيراً. لخصت المؤرخة فيليس دين عملية الإبداع المتواصل على هذا النحو: "لقد أثبتت الماكينات والماكينات التي تصنع الماكينات أنها قادرة على سلسلة لانهائية من التحسين، وعملية التغيير التقني المستمرة وذاتية التوليد تلك هي السبب الحقيقي وراء النمو الاقتصادي المستدام الذي نأخذه الآن مأخذ المسلمات"[٣٤].

عبّر الدكتور جونسون Johnson الأقل تفاؤلاً عن هذه العملية بهذه الطريقة المختلفة: "لقد جُنّ العصر بالتجديد. فكل الأعمال يجب أن تُجرى بطريقة جديدة، وحتى الناس يجب أن يُشنَقوا بطريقة جديدة"[٣٥]. وعلى كل الأحوال فقد بدأ العالم طريق التغيير والإزاحة الدائمين، وكذلك الرخاء المطرد. ولا مجال للرجعة.

"الثورة الدؤوبة"

بيد أن التخصص في العمل وزيادة الإنتاج لم يكونا ليحققا الكثير لو لم يصحبهما التخصص في الاستهلاك. فالمزارع الذي كان يزرع غذاءه ويبني بيته ويصنع عربته، لا يوفر سوقا لمنتجات المصانع الجديدة، وكذلك زوجته التي كانت تغزل ملابس الأسرة وتنسجها وتخيطها. لقد تحوّل المستهلكون، مع انقضاء القرن التاسع عشر، من الاعتماد على الذات العملي، لكنه غير كفء، إلى نظام قائم على النقد،

يقومون فيه بعمل واحد عالي الإنتاجية، ثم يبادلون راتبهم بكل احتياجاتهم المادية. أطلق جان دي فريز على ذلك التحول اسم "الثورة الدؤوبة"[٣٦].

لم تصدر حكومة ولا قيصر بعيد النظر مؤمن بالتنمية أمرا بأن يتخصص العامل والمستهلك أو يزيدوا الإنتاج أو ينفذوا "الانطلاقات" في الزراعة والصناعة. كل ما هنالك أن القضاة والبرلمانيين، الذين كان معظمهم ملاك أراضي ورجال أعمال، صنعوا قانون السوابق وأصدروا التشريعات التي شجعت التجارة والصناعة. وبدأ العلماء، الذين كانت تكبلهم العقلية الأرسطية في السابق، في استخدام الأدوات العلمية البيكونية الجديدة لكي يكشفوا أسرار الكون ويطبقوها على التجارة. وأخيراً نالت الأسواق المالية الجديدة ثقة المستثمرين ووفرت نهراً من المال للأعمال التجارية. إنه الحادث الإنجليزي الأسعد.

الثورة الصناعية: ما مدى سوئها؟

لم تتحقق أمجاد الثورة الصناعية بلا ثمن، من قبيل عمالة الأطفال وشروط العمل البشعة بأجور منخفضة - "المصانع الشيطانية المظلمة"[١٥] - والاغتراب. ما الذي حدث بالضبط لمستويات المعيشة في إنجلترا بين عامي ١٧٦٠م و١٨٣٠م؟ أثبتت هذه القضية على مر السنين أنها قادرة على جعل المؤرخين والاقتصاديين والأيديولوجيين يصرخون، كما تفعل ختازير كثيرة حُصرت تحت سياج. والإجابة المقدمة تتضمن بالتأكيد مؤشراً على الميول السياسية لصاحبها. فأهل اليسار كانوا رافضين لكل ما حدث. ووفقاً لكاتب ساخر مجهول، فإن الحياة في أثناء الثورة الصناعية كانت مقرفة وبريطانية[١٦] وقصيرة[٣٧].

---

(١٥) يرجع وصف الثورة الصناعية المبكرة بـ"المصانع الشيطانية المظلمة" dark satanic mills إلى شاعر إنجلترا العظيم وليام بليك William Blake، حيث استخدمه في تصدير ملحمته "قصيدة ميلتون" Miltom a Poem التي كتبها بين عامي ١٨٠٤م و١٨١٠م [المترجم].

(١٦) وكأن الكلمة "بريطاني" british أصبحت تدل ضمناً على البؤس، طبعاً في إشارة إلى الثورة الصناعية وما خلقته من شروط عمل وحياة قاسية في بريطانيا [المترجم].

كان فردريك إنجلز من المستفيدين الأساسيين من الماكينة الصناعية الجديدة. لكن ابن صاحب مصانع القطن البروسي أخذته الحماسة الثورية التي عمّت القارة في العقد الخامس من القرن التاسع عشر، والتقى مع كارل ماركس الذي أصبح لاجئا بعد فترة وجيزة. وبعد ثورات عام ١٨٤٨م، هربا معا إلى إنجلترا، حيث بدأ إنجلز يدير أحد مصانع أبيه. وقد أعانته ثروته الموروثة ومواهبه الإدارية، وأعانت ماركس معه، في العقود التالية.

قدم إنجلز وصفاً صادماً للحياة في أسفل السلم الاجتماعي في القرن التاسع عشر تحت عنوان "حالة الطبقة العاملة في إنجلترا". بدأ إنجلز الشاب – كان عمره أربعة وعشرين عاماً فقط في ذلك الوقت – برسم صورة شاعرية للحياة في بريطانيا الريفية ما قبل الصناعية:

> وهكذا كان وجود العمال مريحاً إلى درجة مقبولة، وكانوا يحيّون حياة مستقيمة مسالمة ملؤها التقوى والاستقامة، وكان حالهم المادي أفضل كثيراً من حال خلفهم. فلم يكونوا في حاجة إلى أن يرهقوا أنفسهم بالعمل الزائد، وكانوا لا يعملون إلا ما يختاروا أن يعملوه، ومع ذلك كانوا يكسبون ما كانوا يحتاجون إليه. وكان عندهم متسع من الوقت للعمل الصحي في الحدائق والحقول، وهو عمل ينطوي في ذاته على الترفيه، وكانوا يشاركون فضلاً عن ذلك في نشاطات الترفية والرياضات التي كانت تُجرى في أحيائهم، كالبولنغ والكريكت وكرة القدم وغيرها، وقد أفادت هذه الرياضات صحتهم وقوتهم البدنية. فكانوا في غالب الأحيان أناساً أقوياء وذوي بنية متينة، لا يختلفون في بنيتهم الجسمية عن جيرانهم الفلاحين. وكان أطفالهم ينشؤون في هواء الريف النقي[٣٨].

لكن أواخر القرن الثامن عشر جاءت لتجرف أركادية[١٧] إنجلز، وأحلت محلها الخراب واليأس والقذارة المفرطة في الأحياء الصناعية الفقيرة بإنجلترا. وتكفي فقرة

---

(١٧) أركادية منطقة في بلاد اليونان القديمة اشتهرت بأنها موئل الرعاة البسطاء القانعين بما قُسِم لهم [المترجم].

قصيرة غير مؤذية نسبياً من كتاب "حالة الطبقة العاملة" التي اقتبسها إنجلز مباشرة من تقرير حكومي، لأن تنقل التأثيرات البشعة التي أحدثتها الصناعة:

> إنه من المشين أن توجد شوارع كاملة في بلدة هدرزفيلد وكثيراً من الأزقة والممرات غير مرصوفة بالحجر أو ممهدة أو مزودة بالصرف، وتتراكم فيها القمامة والقذارة من كل شكل على السطح لتتخمر وتتعفن، وأصبحت البرك ذات الماء الآسن مشهداً ثابتاً فيها، بما يجعل المساكن المجاورة لها بالضرورة قذرة وسيئة المنظر، وهكذا تنشأ الأمراض وتتضرر صحة البلدة كلها[٣٩].

ثمة تقييم آخر أكثر توازناً، وإن كان لا يزال متجهماً، يقدمه المراقب الحديث جويس مارلو Joyce Marlow يقول فيه: "إن البيوت التي خرج منها الناس لم تكن فخمة، لكنها مع ذلك لم تكن مبنية فوق مجاري الصرف، بمئات الصفوف، دون حدائق، ودون منظر الشجر، ودون نسيم الهواء النقي..."[٤٠].

ثمة فقرة ملوثة أيديولوجيًا تمثل النظرة اللاحقة لليسار ترجع إلى إيريك هوبزباوم الذي حاول أن يوضح أن استهلاك الطعام لكل فرد تناقص في لندن في أوائل القرن الثامن عشر. تنطوي حجته على عيب طفيف، وهو أن النقص في وفرة الطعام تتناقض مع النمو السكاني المتسارع الذي ميّز هذه الفترة (وإلى جانب نمو السكان، كان معدل النمو يرتفع أيضاً). برر هوبزباوم هذا التناقض بالقول إن المجتمع ما قبل الصناعي كما كان يتوفر فيه الطعام بسخاء، كانت هذه الوفرة غير منتظمة وكان عرضة لمجاعة جماعية دورية. وبالنسبة لهوبزباوم اليساري تعد الأخيرة – المجاعة – حالة مفضلة[٤١].

لا شك في أن ظهور الرأسمالية الصناعية، أياً كانت تأثيراتها النهائية على رفاه الإنسان الإنجليزي المتوسط، كان كارثة على الكثير من الشعوب المحلية. وفي ذلك يقول كارل ماركس:

> كان اكتشاف الذهب والفضة في أمريكا، واستئصال السكان الأصليين واستعبادهم وقبرهم في المناجم، وبداية غزو جزر الهند الشرقية ونهبها، وتحويل أفريقيا إلى مجال

للصيد التجاري لأصحاب البشرة السوداء، كانت جميعها إشارة إلى الفجر الوردي لعصر الإنتاج الرأسمالي"[٤٢].

يصعب، من منظور الغرب الحديث، فهم الحماسة الأيديولوجية لماركس وإنجلز وأتباعهما البريطانيين اللاحقين، من أمثال هوبزباوم وبياتريس Beatrice وسيدني ويب Sidney Webb وجورج بيرنارد شو George Bernard Shaw، فضلاً عن أجيال كاملة من خريجي أكسفورد وكامبردج. والشيء عينه يمكن أن يقال عن الإغراء المستمر للاشتراكية في كثير من الدول النامية. لكن الوصف الذي قدمه إنجلز للانحطاط والفقر المذلين في وسط الوفرة، مع الاعتراف بدقته، وإن كان ينطوي على بعض المبالغة، يجعلنا نفهم الغضب وقلة الموضوعية من جانب الاشتراكيين الأوائل.

كان الزحام والقذارة المنتشران في ذلك العصر مسؤولين ولا شك عن معدلات الوفيات المرتفعة بين الطبقة الدنيا الصناعية. وكذلك أدت إنتاجية الماكينات الجديدة إلى فائض في العمالة. وأخذ عدد الخدم المنزليين يتزايد بثبات طوال القرن التاسع عشر، وأصبحت الخادمة وكبير الخدم سمة للبيوت، حتى بيوت الطبقة الوسطى. ومع بداية الحرب العالمية الأولى كان "الخدم المنزليون" يشكلون ١٥٪ من القوة العاملة البريطانية. ومن كانوا يعثرون على هذه الوظائف، كانوا يعتبرون من المحظوظين. وكان الفسوق والجريمة ضروريين في الغالب للإبقاء على الجسم والروح. والحالة البائسة في الغالب للعامل أنتجت كلمات العمل في الأحياء الفقيرة التي تزين اللغة الإنجليزية إلى يومنا هذا، مثل mudlark [الصبي المتشرد] و scavenger [الزبّال] و guttersnipe [ابن شوارع][٤٣].

وعلى الجانب الآخر من خط الفصل الأيديولوجي، رسم اليمين صورة أكثر إشراقاً بكثير لحياة الأسرة العاملة المتوسطة. من ذلك ما أجاب به ت س آشتون في عام ١٩٤٨ على المشككين مستخدماً المقارنة التالية بين الحياة في إنجلترا الثورة الصناعية والحياة في الشرق الأقصى غير الصناعي:

يعيش اليوم في سهول الهند والصين رجال ونساء يأكلهم الطاعون والجوع، ويحيّون حياة ليست أفضل كثيراً من حياة الماشية التي تكدح معهم في النهار وتشاركهم أماكن النوم في الليل. تمثل هذه المعايير الآسيوية وهذه الأهوال غير المرتبطة بالماكينات مصير من تتزايد أعدادهم دون أن يجتازوا ثورة صناعية[٤٤].

عمّرت مشاعر آشتون (وإن لم تكن كلماته بالنص) طويلاً، لكنه كشأن المؤرخين الاقتصاديين اللاحقين والت روستو Walt Rostow وفيليس ديان وأسطورة هارفارد ألسكندر غيرشنكرون Alexander Gerschenkron، خلط السبب بالنتيجة. فجماهير العالم الثالث التعسة تعاني بسبب النقص في المصانع والماكينات، وكذلك لأنها تفتقر إلى المؤسسات – حقوق الملكية والاستشراف العلمي وأسواق رأس المال – في الوقت الذي تمر دولهم فيه بنمو سكاني انفجاري بفضل لقائهم العابر مع تقدم الطب الحديث.

خفّض الدارسون، في السنوات الأخيرة، درجة حرارة السجال الأيديولوجي حول مستويات المعيشة في أثناء الثورة الصناعية، وركزوا على المقاييس البيولوجية الأكثر موضوعية للرفاه. وفي ذلك كشفت دراسات متوسط العمر المتوقع عن حدوث تحسن كبير في طول العمر بين عامي ١٧٦٠م و١٨٢٠م، وقد ظل ثابتاً حتى عام ١٨٦٠م. وقد لوحظ نفس النمط تقريباً في معدلات وفيات الأطفال، التي تراجعت في أواخر القرن الثامن عشر، لتعاود الارتفاع في أوائل القرن التاسع عشر. ومن المقاييس المفضلة لدى دارسي التاريخ الاقتصادي البيانات حول طول الإنسان[١٨]، التي توضح نمطاً من التحسن في أواخر القرن الثامن عشر، تلاه تدهور في أوائل القرن التاسع عشر[٤٥].

وأخيراً فإن إنجلز وهوبزباوم كانا محقين إلى حد ما، فغالبية الأدلة الحديثة تشير إلى حدوث تدهور طفيف في مستويات المعيشة في المراحل المتأخرة للثورة الصناعية، على

(١٨) أثبتت دراسة البقايا الهيكلية أيضا أنها ثمينة في بحث الاتجاهات الاقتصادية في العالم القديم. Ian Morris, "Early Iron Age Greece," preliminary draft, cited with permission of author.

الأقل في أسفل السلم الاقتصادي. فقد كانت الثورة الصناعية بالنسبة إلى الكثيرين، وربما إلى الأغلبية، شيئاً بربرياً جداً. وكانت إنجلترا على حافة الحرب الأهلية والثورة في أثناء الهبوط الاقتصادي في الفترة ما بعد النابليونية أكثر بكثير مما يرغب معظم المراقبين المعاصرين في الاعتراف به[٤٦]. ولحسن الحظ كانت القيادة السياسية البريطانية، ممثلة في حالمين رائعين من أمثال روبرت بيل Robert Peel، الذي كان هو نفسه ابن أحد أقطاب صناعة القطن، مرنة بما يكفي للرد بإجراءات إصلاحية ملائمة.

لكن ما نسيه إنجلز، أو ربما لم يعرفه، هو مدى قسوة الحياة قبل أن تفلت بريطانيا من الفخ المالتوسي. فرغم الحالة السيئة للوجود اليومي في الأحياء الصناعية الفقيرة المبكرة، فلا جدال في أن سكان إنجلترا ازدادوا سريعاً في تلك الفترة. ولا بد أن ظروف المعيشة كانت أسوأ كثيراً قبلها بقرنين، حين كانت كل زيادة في الأعداد تُحدث انخفاضا في مستويات المعيشة، انخفاضاً تكفي حدته لكبح نمو السكان. وبين عامي ١٧٤٠م و١٨٢٠م انخفض معدل الوفيات من ٣٥.٨ لكل ألف إلى ٢١.١ لكل ألف[٤٧]. وكانت رؤية إنجلز الشاعرية للحياة فيما قبل الثورة الصناعية اختلاقا من خيال محموم وعين عمياء عن القوانين الحديدية للخصائص السكانية ما قبل الصناعية.

يعد النمو السريع لسكان بريطانيا بعد عام ١٦٥٠م لغزاً حقيقياً. وتأتي قلة البيانات الدقيقة لتزيد هذه القضية غموضاً. في معظم الحالات يتحول العلماء إلى حساب الفروق بين حالات التعميد والدفن المسجلة. وفي ذلك نجد أن سن الزواج كان أحد الآليات المهمة للحد من الزيادة السكانية. ففي أوقات الرخاء كان الناس يتزوجون مبكراً وينجبون أطفالاً أكثر، وفي الأوقات الصعبة كانوا يتزوجون متأخراً وينجبون أطفالاً أقل. لكن فيما هو أبعد من ذلك تتدخل الأيديولوجيا السياسية مجددا. يعزو علماء السكان اليساريون الزيادة السكانية السريعة إلى الطلب على عمالة الأطفال

الرخيصة، بينما يلقي الدارسون اليميتيون اللوم على نظام إعانة الفقراء خارج المؤسسات الذي كان يكافئ الأسر الفقيرة على الإنجاب. والتفسير الأكثر إقناعاً لارتفاع عدد السكان في القرون الوسطى المتأخرة يتضمن التحسن في الصحة العامة والنظافة، وهو ما يدفع بحدوث تحسن تدريجي في ظروف المعيشة[٤٨].

لكن المشكلة لا تزال محيرة، فطوال هذه الفترة ارتفع الناتج الاقتصادي لكل فرد مع زيادة السكان. فسر مؤرخ هارفارد الاقتصادي سايمون كوزنيتس Simon Kuznets هذا التناقض بـ"فرضية المنحنى" التي تقول إن التفاوت في الثروة والدخل يزيد مؤقتاً في فترات التصنيع السريع، حيث يثرى من يقعون في طليعتها على حساب بقية المجتمع[٤٩]. وقد حدث هذا التسلسل للأحداث ذاته في فترة ازدهار التقنية في تسعينيات القرن العشرين، التي جعلت آلافاً من الشباب العارفين بالحاسوب أغنياء بشكل لا يمكن تصوره (ولو لفترة قصيرة) وهم لا يزالون في عقدهم الثالث من العمر، وأنتجت تفاوتاً كبيراً في الدخل.

إن نقص المعلومات المؤكدة حول معدلات التضخم ومعايير المعيشة يعيقنا دوما عن معرفة الحالة الدقيقة للرفاه والنمو الاقتصادي الإنجليزيين في أوائل العصر الحديث. حتى النقطة المحددة التي حدثت عندها انطلاقة إنجلترا الاقتصادية الحديثة وتحولت مستويات المعيشة الإجمالية لا تزال مسألة خلافية جداً. يدفع المؤرخان الأولان للثورة الصناعية فيليس ديان ووليام كول William Cole بأن النمو الاقتصادي السريع بدأ في أواخر القرن الثامن عشر، بينما تقترح الأعمال الأحدث أن ذلك لم يحدث إلا في أوائل القرن العشرين. ومع أن هذا السجال أبعد من مجال هذا الكتاب، فمن الواضح عموماً أن القرن الثامن عشر الفوضوي كان حافلاً بصراعات مستمرة بين القوى العظمى. وقد بلغت المجازر المتواصلة ذروتها بين عامي ١٧٩٣م و١٨١٥م، مع وصول نوع جديد من الحرب الشاملة

الكونية. وقد خيّم شبح المجاعة حتى على إنجلترا في تلك الفترة الفظيعة، ولذلك فليس من المستغرب أن يكون النمو قد خَفُت في السنوات التي سبقت عام ١٨٠٠م والتي تلته مباشرة. ولعله من المدهش أن إنجلترا تمكنت من مضاعفة عدد سكانها مع منع مستويات المعيشة من الانخفاض، على الأقل في الفترة التي تضمنت حرب السنين السبعة والثورة الأمريكية والثورة الفرنسية وحروبها والحروب النابليونية. على أن التنوع الحديث للنمو الاقتصادي المكثف لم يحدث إلا مع استقرار أوروبا بعد مؤتمر فيينا، ومع إضافة قوة البخار والتلغراف إلى الخميرة الاقتصادية.

وعلى أية حال فإن نموذج العوامل الأربعة يساعدنا في فهم لماذا لم يحدث نمو مستدام قبل أوائل القرن التاسع عشر، حين دخل النقل البخاري والاتصال الإلكتروني قيد الاستخدام أخيراً. فمهما كانت إنتاجية قطاع الصناعة، ما كان لأصحاب الأعمال، لولا السكك الحديدية والتلغراف، أن يسوّقوا منتجاتهم بكفاءة أو ينقلوا سلعهم الجديدة إلى المستهلكين النهائيين.

الثورة غير الصناعية

عادة ما يُربَط مولد الرخاء الحديث بالثورة الصناعية. وقد كان المعلقون الأجانب أول من استخدم مصطلح الثورة الصناعية في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، في حين كان المؤرخ آرنولد تونبي Arnold Toynbee هو من أشاعه عبر سلسلة من المحاضرات في مانشستر في عام ١٨٨٤م. تشير الثورة الصناعية عادة إلى الفترة الممتدة بين عامي ١٧٦٠م و١٨٣٠م[٥٠]. وفكرة أن طريقة حياة وإنتاج أكثر تنظيماً وآلية كانت المَعِين للرخاء الغربي، كانت - أي الفكرة - واضحة لمؤرخي واقتصاديي أوائل القرن العشرين ووسطه، ومنهم فيليس ديان التي كتبت:

لقد غدا من بديهيات نظرية التنمية الاقتصادية الآن أن الطريق إلى الوفرة يتطابق مع طريق الثورة الصناعية. فعملية النمو الاقتصادي المستمرة، وذاتية الدفع كما قد يضيف البعض، التي يتوقع كل جيل فيها بثقة أن يتمتع بمستويات إنتاج واستهلاك أعلى من أسلافه تتوفر فقط - أي تلك العملية - للدول التي تُصنّع. والتفاوت الشديد بين مستويات معيشة السكان فيما يسمى بالدول المتقدمة في منتصف القرن العشرين والمستويات السائدة اليوم في الدول المتخلفة أو المتأخرة يرجع أساساً إلى كون الأولى صناعية وكون الأخيرة ليست كذلك[٥١].

وفي ستينيات القرن العشرين عرّف صناع السياسات التصنيع بأنه الشرط الضروري للرخاء العالمي ورأوا أن التصنيع الإجباري هو الأمل الوحيد للعالم الثالث. أشاع عالم الاقتصاد بمعهد ماساشوستس للتقنية والت روستو مصطلح "الانطلاقة" takeoff، وهي النقطة في اقتصاد الأمة التي يتم عندها "التغلب أخيراً على عوائق وموانع النمو الثابت" وتتحول إلى التصنيع. وقد حدد روستو الانطلاقة الصناعية لبريطانيا بعد فترة قصيرة من عام ١٨٠٠م، والولايات المتحدة في عام ١٨٦٠م، واليابان في حوالي عام ١٩٠٠م، وأستراليا في عام ١٩٥٠م، وهذه الأخيرة هي الأقل دقة بين الجميع[٥٢].

رأى روستو أن الشرط الأساسي للانطلاقة الاقتصادية يتمثل في وجود نخبة سياسية "تعتبر تحديث الاقتصاد من الأولويات السياسية الأولى"، وهنا يكون التحول الصناعي موجه من أعلى إلى أسفل[٥٣]. ومصطلحات "الملكية الخاصة" و"الحريات المدنية" لا وجود لها في رؤية روستو، رغم أنه، للإنصاف، اعترف بأهمية العقلانية العلمية والتسامح الديني. إن المرء حين يقرأ روستو، يرى بعين عقله عشرات الأمم الصغيرة جداً تقف على حافة المَدْرَج الاقتصادي للكوكب، تنتظر كل واحدة منها الإذن للانطلاق في سماء الصناعة الزرقاء. (إذا كان اسم روستو يثير ذكريات من الرئاسة الأمريكية، فلا خطأ في ذلك، فهو نفسه والت روستو الذي كان المستشار الأكثر تشدداً للرئيس ليندون جونسون، الذي ظل يعتقد إلى النهاية أن الحرب في فيتنام كانت تسير جيداً لأن أرقامه ومخططاته البيانية كانت مشجعة جداً[٥٤]).

وحتى ألسكندر غيرشنكرون، الذي يعد المؤرخ الاقتصادي الأشهر للسنوات الخمسين الأخيرة، اعتبر التصنيع كل شيئ للتنمية الاقتصادية، فالأمة لا يمكن أن تكون في رخاء و"متقدمة" دون قطاع صناعي كبير[٥٥].

ترجع أسباب الثروة الحديثة إلى فجر الحضارة، وقد حدث النمو المستدام في هولندا قبل فترة طويلة من حدوثه في إنجلترا. وثمة أمثلة حديثة أخرى تناقض أيضاً الفرضية المتمركزة حول الصناعة. تعد ثروة أستراليا في أواخر القرن الثامن عشر مثالاً جيداً لذلك. وفقا لرؤية ديان وروستو وغيرشنكرون كانت أستراليا أمة زراعية "متخلفة"، تمتلك قطاعاً صناعياً صغيراً. كيف استطاعت، إذن، أن تحافظ على أحد أعلى مستويات المعيشة في العالم في وقت غاصت فيه دول زراعية أخرى في الفقر؟

يحدد روستو شرطاً آخر "للانطلاق"، هو زيادة معدل الاستثمار عن ١٠٪ من الدخل القومي. وهنا أيضاً يخلط أستاذ معهد ماساشوستس للتقنية السبب بالنتيجة. فباستثناء المجتمعات الشمولية، يكون الأفراد هم الذين يختارون نسبة الدخل القومي المستثمرة، وليس الحكومات. والمستثمرون يقدمون رأس المال فقط عندما تكون المشروعات واعدة بعائدات عالية. كما تبين البحوث الاقتصادية الحديثة أن الاقتصادات الحديثة النشطة تتمتع بمعدلات إدخار عالية لأنها تقدم عديداً من الفرص المربحة، وليس العكس[٥٦]. وعلى أية حال فإن المدخرات البريطانية في أثناء الثورة الصناعية كانت أقل بكثير من الحد الأدنى الذي حدده روستو (١٠٪)[٥٧].

لكن كيف أخطأ هؤلاء العلماء الكبار في تقدير الأمور؟ إنهم أولاً: قللوا، كما فعل كثيرون قبل عام ١٩٨٠م، من أهمية العوامل المؤسسية، خاصة حقوق الملكية وحكم القانون. ثانياً: لم تتح لهم بيانات تاريخية دقيقة. فلم يحاول الاقتصاديون إلا في العقود القليلة الماضية أن يعيدوا بناء أبعاد النمو الاقتصادي التي ترجع لقرون أو حتى

ألفيات من السنين. تقترح هذه المعلومات الأحدث أنه في أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات المتحدة لا تزال أمة زراعية بالدرجة الأولى، لكن الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد فيها كان مماثلاً تقريباً لنظيره في إنجلترا. وفي نفس الوقت، كما رأينا، فإن أستراليا، التي لم "تنطلق" بحساب روستو إلا بعد نصف قرن، حققت في فترة موجزة أعلى ناتج محلي إجمالي للفرد في العالم.

يمكننا كذلك أن نرجع الزيادة في الثروة الوطنية إلى السيارات (كما فعل روستو)، أو إلى الهواتف، أو إلى ساعات رولكس، أو إلى كراسي لويس الخامس عشر[١٩]. لكن كشأن التصنيع، تعد هذه الأشياء، بصرف النظر عن كونها من سلع الترف أم لا، من نتائج الرخاء، وليست أسبابه الأساسية. حتى الإنسان العادي يدرك الآن أن التصنيع بحد ذاته ليس حجر الزاوية للتنمية الاقتصادية. وانهيار التجربة السوفيتية، التي كانت تقوم على التصنيع الإجباري، والفشل الذريع لمعظم مشروعات البنية التحتية الكبيرة ذات الرعاية الأجنبية في العالم الثالث تثبت أن الرخاء يتطلب أكثر من مجرد بناء المصانع والسدود. والثروة "ما بعد الصناعية" الرائعة التي حققتها الدول الأكثر تقدماً في أواخر القرن العشرين، تلك الدول التي ظلت اقتصاداتها القائمة على المعلومات والخدمات تنمو حتى بعد أن ذبلت قطاعاتها الصناعية وهاجرت إلى الدول منخفضة الأجور، تدحض أهمية التصنيع باعتباره المصدر الأساسي للرخاء.

كما ثبت أيضاً بطلان نظرية أحدث للتنمية الاقتصادية، هي نظرية "إحلال الواردات" التي تقترح أن الدول النامية يجب أن تحمي صناعاتها الناشئة بالتعريفات والحواجز التجارية الأخرى. تقترح البيانات الأخيرة أن مثل هذه السياسات تفيد فقط في إنقاص التنافسية طويلة المدى لهذه الصناعات الناشئة وإبطاء النمو الاقتصادي الإجمالي[٥٨].

---

(١٩) تحظى الكراسي، والأثاث الفرنسي عموماً من طراز لويس الخامس عشر بشهرة وطلب واسعين على مستوى العالم [المترجم].

كانت إنجلترا الأمة الأولى التي تحافظ على معدلات نمو اقتصادي عالية، سواء من حيث الناتج المحلي الإجمالي ككل أو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد، بسبب ريادتها المطلقة في تطوير كل العوامل المؤسسية الأربعة. وفي النهاية، أصبح تاريخ إنجلترا الاقتصادي الطويل عبئاً، بغض النظر عن عظمته. فحتى القرن الثامن عشر كانت سجلات القوانين تمتلئ بكثير من قوانين القرون الوسطى. من أمثلة ذلك قانون الحرفيين الذي نشأ في الأزمنة الإيليزابيثية، لكنه لم يُبطَل حتى عام ١٨١٤م. عند مراجعة هذا القانون كتب آدم سميث:

> قضى هذا القانون، من بين أشياء أخرى، بأنه لا يجوز لصانع المركبات أن يصنع بنفسه عجلات العربة التي يصنعها أو يستأجر صناعا مهرة لصنعها، وألزمه بأن يشتريها من صانع عجلات بارع .... لكن صانع العجلات مع أنه لم يعمل صبياً أبداً عند صانع مركبات، يمكنه أن يصنع بنفسه المركبات أو يستأجر صناعاً مهرة لصنعها. إن حرفة صانع المركبات ليست في القانون لأنها لم تكن تزاول في إنجلترا في ذلك الوقت عندما وضع القانون[٥٦].

كانت تجارة الصوف تقيدها مثل هذه القواعد، وكان أحد الأسباب وراء النمو الانفجاري في صناعة القطن أنه كسلعة جديدة بدأ دون تنظيم من الحكومة. وقد كان بمقدور رجال الصناعة أن يتجنبوا قوانين الحِرف بتنفيذ أعمالهم في "مدن جديدة" مروعة مثل برمنغهام ومانشستر التي لم تكن تلك القواعد تسري فيها ولا يوجد فيها قضاة الصلح الذين كانوا يفرضونها.

كانت التقاليد الاحتكارية الإنجليزية بطيئة أيضاً في اختفائها. فقد حافظت شركة الهند الشرقية على احتكارها للتجارة مع الهند حتى عام ١٨١٣م، وللتجارة مع الصين لعقود بعد ذلك. واحتكار شركة الهند الشرقية بمنعه للشركات البريطانية الأخرى الراغبة في التجارة مع الشرق الأقصى أضر بالتجارة الإنجليزية أكثر مما أفادها. وقانون الفقاعة، الذي أُصْدِر لمنع المضاربة في عام ١٧٢٠م، في أعقاب فقاعة شركة

البحر الجنوبي، شل الإبداع باشتراطه الحصول على صك برلماني لتكوين الشركات المساهمة. ولم يُبْطَل البرلمان قانون الفقاعة إلا في عام ١٨٢٥م، ولم تُبَسّط عملية تكوين الشركات المساهمة إلا في عام ١٨٥٦م.

حظر قانون الفقاعة أيضاً استخدام الكثير من "أدوات المضاربة" التي ألقي عليها اللوم في كارثة السوق في عام ١٧٢٠م، ومنها البيع القصير والعقود المستقبلية. وقد أصبحنا الآن على يقين من أن هذه الأدوات تحسّن استقرار السوق وتقلل تكلفة رأس المال. وغيابها جعل الأسواق المالية البريطانية غير مستقرة تماماً على مدى القرن التالي.

كانت إنجلترا، مثل بقية أوروبا، دولة مركنتلية إلى حد كبير، ولم تتخلص من نظامها الحمائي إلا بعد وقت طويل من معركة وترلو. تحدثنا في موضع سابق حول إبطال قوانين الحبوب، وبالمثل لم يبطل البرلمان قوانين الملاحة حتى عام ١٨٤٩م. ولا يكون للسفينة البخارية قيمة كبيرة للتجارة إذا كانت الحكومات حمائية جداً لزراعتها وصناعاتها المحلية. وفقط بعد أن تخلصت إنجلترا من تشريعاتها الحمائية، وضعت اللبنة الأخيرة في أساس الرخاء – النقل الفعال – في مكانها.

القدس الجديدة

كانت المستعمرات الأمريكية تمتلك كل المزايا المؤسسية التي طورتها بريطانيا، وزادت على ذلك أنها أفلتت من أغلب لعناتها. مرّ تكوين الرأس مال الأمريكي دون أن تواجهه معوقات. وبعد فترة قصيرة من التصديق على الدستور وضعت الولايات المتحدة أكفأ نظام براءات اختراع في العالم. وكل ما كان ينقصها هو رأس المال نفسه والعمال. وكلاهما أخذ يتدفق بحرية من الداخل والخارج. وبحلول عام ١٨٥٥م تجاوز عدد سكان الولايات المتحدة سكان إنجلترا، وبحلول عام ١٨٧٠م أصبح اقتصادها أيضاً أكبر من بريطانيا.

يوضح الشكل رقم (٧,٢) نمو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في الولايات المتحدة بعد التصديق على الدستور. يبيّن الشكل أنه مقارنة بالنمو غير المؤكد في إنجلترا في أوائل القرن التاسع عشر، شهدت الولايات المتحدة نمواً في الإنتاجية قدره حوالي ٢٪ سنويا منذ البداية، وهو معدل أسرع كثيراً من نظيره على الجانب الآخر للأطلسي[٢٠]. ومعظم النمو المبكر للإنتاجية الأمريكية جاء متأخراً عن بريطانيا، وقد ذهب ماديسون إلى أنه في عام ١٨٢٠م كان الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في الولايات المتحدة ٧٣٪ فقط من نظيره البريطاني، وأن الإنتاجية الأمريكية لم تتجاوز نظيرتها البريطانية إلا في أوائل

الشكل رقم (٧,٢). الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي لكل فرد في الولايات المتحدة.

المصدر: Department of Commerce.

(٢٠) إن قرب الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في الرسم البياني الموضح في الشكل رقم (٧,٢) من خط الاتجاه ٢٪، أي قربه من هذا الخط أمر لافت للنظر. تذكر من الفصل الأول أن نمو الناتج المحلي الإجمالي لكل فرد في دول العالم المتقدمة الرئيسة في أثناء القرن العشرين يتجمع أيضاً بإحكام شديد حول ٢٪.

القرن العشرين. لكن نتيجة للهجرة ومعدل الولادات الأعلى تجاوز الحجم الخام للاقتصاد الأمريكي نظيره البريطاني قبل فترة طويلة من ذلك[١٦٠].

لقد حظيت الدولة الجديدة بوفرة الأرض والموارد، لكن جغرافيتها القارية الواسعة، رغم أنهارها الطويلة، لم تكن مواتية للرخاء الاقتصادي، مقارنة بإنجلترا أو هولندا على وجه الخصوص. ومنذ البداية ورثت الولايات المتحدة من إنجلترا السلعة الأثمن على الإطلاق، وهي أفضل مؤسسات العالم. وقد وقع اختيارها على المؤسسات التي تشجع الحرية والتجارة، ونبذت المؤسسات التي لا تشجعها، وابتكرت بنفسها مؤسسات أخرى. وكانت عيوبها الخاصة، وعلى رأسها مؤسسة العبودية، التي تسببت في حرب أهلية مدمرة، هي التي تؤخر وصولها إلى قيادة دول العالم.